رواية

زينب الكناني

أقراط مينا

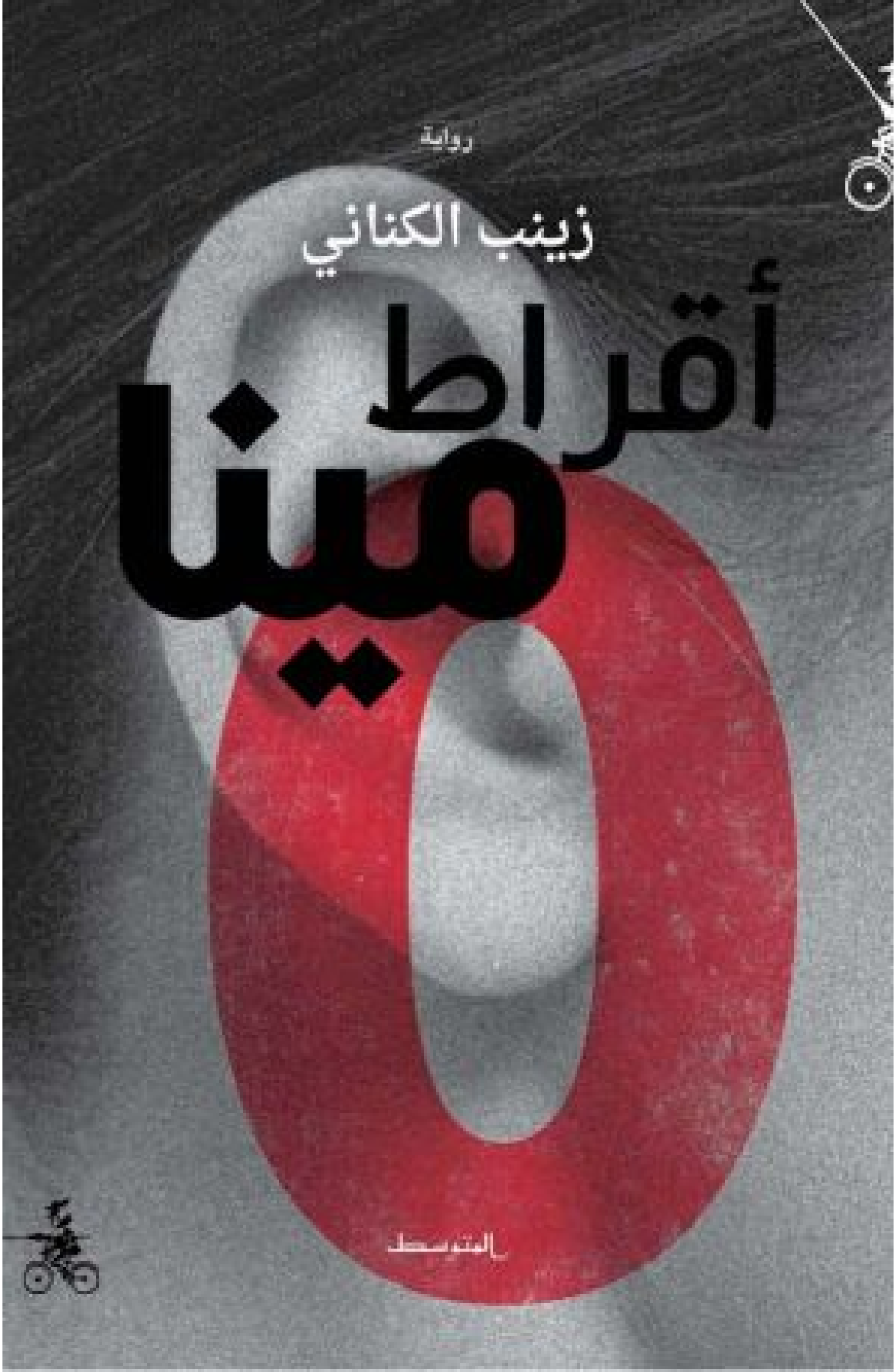

المتوسط

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تحزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

©منشورات المتوسط

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المتوسط

ميلانو - إيطاليا

e-mail: info@almutawassit.org

www.almutawassit.org

تابعونا على

Almutawassitit@

منشورات المتوسط

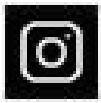

Almutawassit

الإهداء:

إلى صرعى الحب فوق أرصفة الحرب

واليك صديقتي Z.K.M

الفصل الأول

"مينا" المتغندرة والشغوفة بالأقراط، لم تكُن والدتها تُدرك أن عادة أكل التراب في طفولتها إشارة لتعلُّقها بأرض، لم ترتكز عليها بقاعدة جاذبية، وشغفها بشراء الحقائب المنقّشة بالطيور، والمرقشة بالنجوم، لعلها إشارات مُسيّرة من نجمة القدر على ترحالها عبر محطات، لم تكن بالحسبان..

***

سقط مذنّب كهانتها، وتفرقع في مرجل، يغلو فيه أزرق حبري، كيف؟ لا أعلم .. وجدتُ في ملفات الطبيبة السورية في هولندا ما كانت تبوح به "مينا" من تفاصيل مهمة، وغير مهمة عن طفولتها، ومراهقتها ، ودراستها الجامعية، والتي وصلت لي بموافقة الطرفين، لم أركّز في ماهية دوافعي لاستئصال ورم الماضي، وتحليل خلاياه تحت مجهر مزيّف، يعملق ويقزّم التشوّهات بضغطة زر من عقلي الباطن، وإن كنتُ لا أفهم غاياتي، على وجه الدقة، لكنني متيقّن بأني جلدتُ بسوط روايتها ذاتي، وأنا أقتفي أثر جروحها على ظهر الوقت، وأنا أنصت إلى حفيف ثوبها الغجري، وصلصلة الحصى تحت قدميها، مُزيلاً رغوة الرغبة المجنونة من شفتها السفلى، مُطفئاً سعارها بمزن ثلوجي، وغطاء قُبحي.

مینا

دكتورة "راما"، لا أجيد سرد التفاصيل والصور التي تحضرني، بانوراما الأحداث في حياتي تشعرني بأني داخل بالونة سوداء، نفختها بزفير وجعي، وصرتُ أنظر من داخلها إلى الماضي والحاضر، متوجسة من انفجارها في أي لحظة صادمة مع ألوان الواقع الفاقعة.

أكثر ما يتعبني في الحديث - هنا - هو استحضار الأمس البعيد من أفق ذاكرة مزدحمة بمراكب الانفعالات والهواجس، والمسرّات والنكبات. كنتُ أشغل رقم (٢) في تسلسل البنات، ورقم (٣) في العائلة؛ إذ يكبرني: "سامر"، "ندى". أما "هديل"؛ فهي أصغرنا، وأجملنا.

ذكرياتي الكامنة تنبعث شيئاً فشيئاً من جزة الروح. نشأتُ في عائلة ميسورة الحال، وليست ثرية. كان والدي مستقلاً سياسياً، يفكر علماني، تعمق كثيراً بقراءاته للفكر السياسي والفلسفي الغربي، مهووس بشراء الكتب، وكان يخصني بمجلتي "مجلتي" والمزمار" الشائعتين للأطفال في حقبة الثمانيات. وفي كل مرحلة عمرية، كان يحثني على مطالعة قصص متنوعة، تناسب ما وصلتُ إليه. أما أمي؛ ففي كل مناسبة تهديني "تراجي"! قد تكون ذهباً مطعماً بالمينا، فضة، أو نحاساً، ليس مهماً. قد تكون بحجم الحمصة، أو حلقة تتدلى منها قصبات ملونة، ولفاعة، أجمعهم في صندوق وردي متوسط، وأخرجهم - أحياناً - لأرثيهم، وأعذهم على نضد المرآة. كنتُ مقربة من أمي للشبه الواضح الذي يجمعنا في الملامح والحس المرهف. ألازمها كلّما خرجتْ، وأتشبث بتلابيب أمومتها، في أثناء تجوالنا في محال الكرادة، لاقتناء المزيد من الأقراط، وأكل الآيس كريم من مثلّجات "الفقمة" في ساحة الخزنة. لم أضجر يوماً معها من معاودة الدخول للأسواق ومحال الأحذية والإكسسوار أنفسها.

كان أبي - ببشرته السمراء وقوامه الممتلئ - قبطاناً لمركب العائلة، يدير دفة أمي، ويطوّع رأسها متى شاء . أذهب معهما إلى "الأورزدي باك" (السوق المركزي للتسوق في المنصور)، أمي بتلورتها البلّي الميدي، شعرها الكستنائي المسدل على كتفيها، وأبي بقميصه السماوي الأثير ومسبحة الكهرب التي لا تفارقه. ينتبه المارة على شكلي المضحك بأقراط أكبر من وجهي، أصرّ على أخذها من أدراج أمي، تقرّص شحمة أذني من دون أن

أدخلها في الثقب! تقول البائعة لأمي:

- ديري بالج، تلتهب أذن بنتك.

تهز أمي رأسها، وتجيب: روحها بالتراچي.. شسوي؟!

أستمتع عندما أجلس في عربة التسوق، وهما يرميان المشتريات في حجري، كنتُ مصزة على أني الصغيرة، أختي "هديل" تسير على قدميها، وأنا التي أكبرها مدفوعة في العربة!

في المساء، وفي طريق العودة، ألصق فمي وأنفي على زجاج السيارة، عيناي تتراقصان متأملتان غسق السماء وتلألؤ النجوم التي أحاورها، وأسقيها بأسماء أنثوية مختلفة. كنتُ - أحياناً - أنقش اسم النجمة التي أتعلق بها على حصاة، وألونها، ثم أرميها عالياً؛ لتتلقفها أجرام الفضاء البعيدة.

فطنت وأنا أرض المكعبات "الليكو" على شكل شباك وبيت مغلق مثبت على قاعدة خضراء، هي الحديقة، أما "سامر"؛ فيرتب القطع؛ لتكون مسلات، أو أهراماً. يشتد ولعي ببنائها معه، هدمها وتكرار بنائها، وهو يثرثر بأسماء الفراعنة، مخرجاً من خزانته صوراً مقصوصة من أحد الكتب أو الموسوعات للملكة "نفرتاري"، بأقراطها وخلبها. يحدثني عن تفاصيل نقلها من مسلسلات تاريخية، كان شغوفا بمتابعتها. "الليكو" جمعني مع "سامر" في لحظات ومواقف طريفة، برغم فارق السنوات الست بيننا، في وقت كانت "ندى" تتعجرف، متباهية بذكائها المتوقد في الرياضيات والضرب والقسمة، تحاول جرّنا خارج اللعب؛ كي تستظهر مواهبها، تبتسم لنا بمكر طفولي، فينجلّى جمال غمازتيها الغائرتين في ربوة الوجنات.

المنافسات تحتدم بيننا، وتخرج منها "هديل" بسلام؛ إذ تستكين إلى عوالم المطبخ مع أمي وحياكة الفساتين بالسنارة لدميتها!

حاول أبي أن يتركنا؛ لنكون أخوة مختلفين ومتوافقين، متنافرين ومتجاذبين حول بوصلة الحياة. يطعم ثقافتنا ببراعم من حضارات متعددة، وأمثال مختلفة؛ لتنضج في فكرنا فاكهة معرفة رزانة.

طفولتي كانت مكتنزة بالحب. أمي، وأبي متفقان في أغلب الأحيان، يتخاصمان لدقائق، ثم يتلو أبي على مسمعها ما تيسر من أشعار الحب؛ لتعود طيعة كالصلصال بين يديه. عرف سرّ إرضائها ، وعثرت هي على مفتاح قلبه في خزانة الأسرة الحميمة.

طالما انتشيت فرحاً، كلّما بحثت عن أمي، ووجدتها في هول البيت، تُخبئ رأسها بين أحضانه زاعقة "ابتعدي، يا شقية"! وهو يغمز لي بعينيه قائلاً: أمك بعمرك نفسه، على ما أظن، يا "مينا"!

جو الدعابة كان سائداً في شتاءاتنا الحميمة، يطوّحنا بين الفرح والحزن، الصخب والهدوء.

ما كان لأصوات الغارات والصواريخ في الحرب مع إيران إلا أن تُعكّر صفو سمائنا، ولكن؛ سرعان ما تنقضي حال استتباب الهدوء. ضراوة الحرب واحتدامها كانا متركزَين على جبهات القتال، تشتد الاشتباكات، وتُسجى المدن بعدها بلافتات النعي السوداء، ولا يصلنا غير نشيج الثكالى، ونواح الأرامل.

أما المدرسة؛ حيث نقضي الجزء الأكبر من يومنا؛ فكانت وعاءً رطباً لنموّنا، تُسمد عقول التلاميذ بفضلات ضغائن، خرجت مع روث ماشية السياسة. تُلقن أجندة الحزب الحاكم: بغضه وانتماءه وكل إحداثيات وجوده فوق أنوفنا. نردد الشعارات، نمجد، نلعن، ندعو بالويل كالببغاوات الصغيرة، ثم نُضرب بالمسطرة الحديدية في عقاب جماعي، تسبب به أحد التلامذة الثرثارين في الصف!

لا يوجد في التلفزيون غير قناتين رسميتين، تتحدثان عن الحرب وقائدها الذي يزجّ بأبناء المدينة إلى حتفهم، رافعاً بأيديهم رايات حرب - شرعية كانت أم غير شرعية - أقحموا فيها عنوة.

في دوامة الحرب، لم ينقطع - أبداً - الجسر الإعلامي الرصين من سوح القتال إلى بيوتنا، فطالما كممتُ احتقاني قبيل فترة برامج الأطفال التي تُبث قبلها مباشرة صورٌ من المعركة (خوذ، بساطيل، وأشلاء جثث مبعثرة). فالصور - مهما تجاهلنا عرضها - كانت تلاحقنا في الإعادة الثانية، أو الثالثة!

برغم كل شيء، اعتدنا - كأطفال في الثمانينيات - ذلك الروتين؛ لأننا لم نعرف نقيضه الذي شهده أهلنا من قبل. الحياة في بيتنا مُفعمة بالحب، منزلنا مُشمس، وعائلتنا مُنتشاة بعطور الورود التي تزرعها أمي، كالجوري والغاردينيا. أنتشي برذاذ الماء، وأنا أسقي حديقة المنزل الصغيرة، أملأ رئتي بشهيق طويل، أحني ظهري ، أتمايل، وأمد ذراعي جانباً كفزاعة الحقل! كثيراً ما فردتُ شعري المبلول للريح، وتحفيتُ تاركةً الطين يأخذ شكل الحناء على قدمي، وشيء منه على حافة لساني، والبعض أخذ

طريقه إلى معدتي! تتأملني أمي مبتسمة، وهي جالسة على كرسي الخوص فوق الثيل الرطب، وأقول لها: "ستنتهي الحرب، يا أمي، لا تخافي".

هل كنتُ أمها؟! أم هي أمي؟! لا أعلم.. تغرورق عيناها بهتون الدمع، وتقول: "الله رحيم، يا بنتي، معقولة تنتهي هالحرب ؟! تعبنا "!! صلواتها كانت خافتة، تنفرد بنفسها وقت الأصيل، تمد حبائلها الشفيفة إلى غيمة، عرفت ماهيتها، غيمة تكثفت من بخار الحزن (المغلي في سزها) على حال الوطن!

(يضيق صدري شوقاً ووجعاً، وأنا أستجدي خزائن الذاكرة قُصاصة حنين إلى أيام خلت بخلوها وفزها ، سعيتُ مرارا إلى نسيانها، لكنها ما برحت أبداً روحي).

فجأة، قضت الحرب وطرها ببيان البيانات، في شهر آب اللاهب ١٩٨٨، أقمنا حفلاً صاخباً، وشهقنا ضحكاً، رشقنا بعضنا بماء المكوى الرشاش، خرجنا في سيارة أبي إلى الجادرية والمنصور، أكلنا الآيس كريم من مثلّجات الرؤاد، ولم تغفُ لنا عين، أو يهدأ لنا لسان تلك الليلة مع هلاهل أمي، وأهازيج أبي.

ما فتئ الوقت يمز تحت قدمي، وأنا ألعب مع أخواتي "ندى" و"هديل" لعبة القفز فوق الحبل، حتى سمعنا نواقيس حرب أخرى تُقرع في باحات طفولة، كانت قد انتهت، وحلّت محلّها كعوب فتيات، يُطقطقن فوق جسر المراهقة، طلاء أظافر، تصفيفة شعر حديثة، وترقّب مهيب لآخر ألبومات الأغاني الشبابية.

مذيعو الأخبار أنفسهم - ببدلاتهم الرسمية - صدحوا بتصريحات القائد (وكيل السماء في العراق) أنه حرّر الكويت من براثن حكّامها في يوم النداء العظيم، يباركه الشعب المقهور، يصفّق، يفتدي بالغالي والنفيس، ونفغر نحن في البيت أفواهنا، نستمع لما يدور حولنا، من دون أن ننبس بكلمة. أتذكّر جيداً أنه كان صيفاً قائظاً، وكنا قد عدنا للتو من مصايف سرسنك وشقلاوة في شمال العراق قبل أيام من هجوم الكويت.

بدأتُ أقلق في سن مبكّر جداً، ففي داخلي جدار رقيق، كان يهتز سزاً مع رعدة الأخبار، وكلّما هممتُ بالنوم، أقضّ مضجعي باستفهامات: ماذا يحدث؟! كويت؟! نحن؟ وكيف؟! ما برحتْ من مخيلتي تسجيلاتُ الشاعرة الكويتية سعاد الصباح التي كانت تتكرّر كل يوم في التلفاز وقت الحرب مع إيران، وبعد يوم النصر، وهي تشيد بحكومتنا حامية البوابة الشرقية، وقائدنا الهمام.

أسمع أبي يتمتم بعيداً عن أمي التي لم تكن تريد تصديق ما يحدث،

وكأن كل من حولها يمزحون بقصة سخيفة، وفي صوته حشرجة حسرة: ليس الآن! أوشكنا أن ننتهي من نسيان البيانات المرقمة للغارات، ولافتات النعي السود في أزقة المدينة وساحاتها! ليس الآن، يا إلهي! هذا المعتوه ينقلنا بين طبقات الجحيم!

يُخبر أبي ما يدور في كواليس والدتي جيداً، وكيف يقطع دابر قلقها، يغمرها محاولاً تلطيف الجو بأغاني وردة الجزائرية، أغنية ميادة حناوي "أنا بعشقك، وكان يا ما كان.

كنتُ أعيد معهما:

"كان يا ما كان، كان يا ما كان

الحب ساكن بيتنا، ومدفيينا الحنان، ومدفيينا الحنان"

ولم أكن أرذد المقطع الآخر، برغم صغر سني

"زارنا الزمان .. سرق منا فرحتنا، والراحة والأمان"

كثيراً ما ارثبث من أفعال السرقة، وهل للزمان فعل سطو على بيوتنا الآمنة؟!

كل من يأتي لزيارتنا في تلك الأزمة: عفي، زوج خالتي، يدور حديثه في السياسة، وتطوراتها، قرارات مجلس الأمن، تصريحات الرؤساء العرب، والجيوش التي تُجيش لحق، قد يُراد به حق، أو باطل، كلها أصبحت سيان في بلد، لم يُعرف لبنر سياسته قرارا! أبي يستشيط غيظاً، ثم يركل طاولة مكتب، الوقت كان أكثر من عصيب ومتأزم، فكل من في البيت أمسى يدور بلا وعي حول زار التهديد والوعيد بقصف ونسف عشوائي، أو مبرمج فوق رؤوسنا.

واشتعلت الحرب التي نشبت أظفارها في أكتافنا، مارست ساديتها في تمزيق أكبادنا في تلك الليالي الهوجاء؛ حيث ذفرت الاتصالات، الكهرباء الجسور، النخيل، وكل ما له صلة بالحياة. لكن فجيعتنا بخالتي لم يُضاهها حزن في ما أسموه "أم المعارك"، فقد قضت هي وزوجها وأطفالها الثلاثة في ملجأ العامرية يوم ١٣ فبراير١٩٩١، ذلك الملجأ الذي بذلت طائرتان من نوع "أف ١١٧" الأمريكية كلّ جهودهما في اختراقه على حين غفلة! رائحة أجسادهم المحترقة اخترقت رئتي أمي، وسكنتها. ذلك الخطب الذي هز عروش الملائكة، وأنزلهم في جنازة عوائل، لا مبتغى كان لهم غير استجلاب الأمن لأطفالهم، في ملجأ محضن، انصهرت فيه أجسادهم. أمي وأبي هُرعا في ذلك الصباح المشؤوم إلى مكان الملجأ؛ حيث تُنتشل الجثث المشوهة والمتفحمة من قِبل الدفاع المدني، وقد بات من الصعب التعرّف عليها. نواح وصراخ انبعثا، من كل صوب، حتى مادت الأرض المحترقة بأمي في موقع الحادث، فأغمي عليها.

تغيرت حياتنا بعدها في محاولات لمعالجة أمي من الاكتئاب. الصدمة فاقت إدراكنا، واستنفدنا كل وسيلة لخمد أثرها، من دون جدوى!

بعد انتهاء الحرب، غدنا للحياة، بشكل تنازلي، بحقائب محشوة بهلع الأحداث، متحاملين على عزاب الحرب العابث بأرواح أحبائنا على صراط الوطن المغدور. كظمنا غيظنا تحت ألسنتنا، وغدنا، عدنا، وكأننا كنا في نقطة، يتحول فيها الفولاذ إلى أكوام قش، تتطاير بفعلٍ بهلوانـي، يحترفه الشحزة، أو لاعبو السيرك وحدهم!

الغيوم فوقنا سود، أمطرت زيتاً وعفونة فوق أشجار حديقتنا. كنتُ أراقبها، باستغراب، وكأن أشباحاً فضائية، استوطنتها، أتراها ارتدت الحداد على روح المكلومين منا؟! أم كنا في قبضة الدينونة؟! تلك الغيوم كانت رسمتها بأشكال متفردة في سمائنا، يُلهمني الإحساس بالحياة، أتأملها، وأضفي لمخيلتي الجامحة قصصاً، لا تُحصى، غيمة ترقص، غيمة تتزحلق من القمر، وأخرى تغني للنجوم..

سمعتُ أخي "سامر" يتحدث عن إشعال الآبار في الكويت بعد أن استرجعتها القوات الأمريكية. فأدركتُ أن تلك الغيوم المحتشدة بحزن، امتصت البترول المحترق، وتشبعت بخار دموع الثكالى.

المشكلة الأكبر كانت في مُخلّفات حرب، لم تكن في الحسبان: احتقان شعبي في الوسط والجنوب، أصوات معارضة، واعتقالات، مقابر خفية تواري الرؤوس التي أبت الظلم والخنوع. وفي قفا قبعة خيبة اعتمرها الشعب محاولات حثيثة لترقيع قمصان انتصاراتنا الفترغة بالهزائم، حملة كبيرة لإعادة الإعمار، ونزع ثوب الدمار الخرق من بغداد؛ لتعود سابق عهدها.

أتذكر فترة التسعينيات الخانقة إبان العزلة الدولية والحصار الذي أخذ مأخذه من الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وأفرز في المجتمع عاهات نفسية، ورواسب خُلُقية، تفاوتت على مستوى الأفراد والجماعات ، مع محاولات المبدئيين القبض - بقوة - على جمرة الشرف والخبز الحلال وسط تدافعات زحمة العيش والتقشف. الكل كان يترقّب ارتخاء طوق الحصار المحكم الربط على أعناق البسطاء، ويأمل بالانفراج.

أما والدي؛ فيعمل تاجر أقمشة، ورث المهنة من والده وجده ، لكنه لم يكن أخطبوطاً في التجارة ، آثر - دوماً - الربح المعقول على الخوض في المنافسات مع تُجار مرابين، أو لصوص متجفلين بقفطان الورع.

أما والدتي؛ فهي معلّمة في مدرسة ابتدائية، تقاعدت لأسباب صحية بعد فجيعة أختها. ولم تعد قادرة على الوقوف وتعبئة التلاميذ بما يشقّق فكرهم، يرفعون صباح كل يوم خميس العلم، وقلوبهم الصغيرة مشدودة بين الأوتاد، لاعنين في خلدهم من يطلق الأعيرة النارية في ساحة المدرسة، بلا أدنى اعتبار لحزم الطفولة، مرددين بأعلى أصواتهم : عاش القائد المقدام، عاش.. عاش.. عاش..

كنا كلّما ازدردنا الصبر، علِقت شوكة في مجرى تنفّسنا، وغلّقت قنوات العبور إلى الطمأنينة! فكل أيامنا تخضع لوتيرة القلق، أبي يرتفع ضغطه مع تقلبات السوق، هبوط مفاجئ للفضة.. بضاعة الأقمشة تتكدس في المحل، وترقّب الانفراج مع صعود نبرة الخطاب السياسي، وخفوته! تعودنا في البيت على استلام المصروف مع احتمال زيادته، وعدم النقصان، الاكتراث بالأزمة نسبي، بالنسبة لأفراد عائلة، تعوّدوا على الرفاهية، أبي حمل على كتفيه أجران هموم، فاضت بمرض أمي، وحيرته معها!

"ندى" في كلّية الصيدلة، "سامر" أنهى كلّية العلوم فرع الفيزياء، وقد أنهيت مع أبي أوراق مباشرتي دراسة علوم الحاسبات في جامعة بغداد. كان أبي يحرص على لمتنا في المساء، ويخبر "هديل" أن إهمالها الدراسة سيفضي بها لزواج مبكر، لا محالة، تحمز وجنتيها خجلاً، ونعلم - برغم

انتقادنا لها - أن فحوى الحديث تداعب خاطرها، وتحرك قوارب الفرح العالقة في خلجان نفسها!

أنتشي حنيناً، كلّما تذكرتُ ليالي الشتاء، وتجمعنا حول المدفأة النفطية التي لا يكاد يخلو منها بيت عراقي، يضع أبي عليها إبريق الشاي والكستناء.. وقدر "الشلغم"[1] المسلوق. نتحلّق حولها، ويُخبرنا أنه في ذروة الأزمة، وإن تدهور الوضع أكثر من ذلك لا ينوي - أبداً - بيع مكتبته التي أغنتهُ بمعارف الاقتصاد والسياسة والأدب. كُتبُ الصيدلة التي تخُص "ندى"، وكُتبُ الشعر التي أعشقها أنا، المجلات العلمية التي تهمّ أخي. فطالما تضُدتْ له الكُتب، وزيّنتْ المكتبة بعد تذمره من عبثية "ندى" وتجاهل "هديل" التي لا تُعنى بغير كُتب الطبخ.

يزورنا عمي مع زوجته وابنيه "مروان" و"قيس" اللذين يدرسان في كلّية الرافدين الأهلية. كانا مُدلّلين بطريقة، تثير انتقاد أبي، فيقول لهما "يرادلكم عسكرية، يا شباب حتى تقويكم، وأتمنى ما يدفعلكم أبوكم بدل خدمة عسكرية". كان عمي يُفرط في بذخه عليهما، ظاناً أنه يعوضهما عن اهتمام والدتهما المنشغلة بوسواس النظافة القهري. لا أتذكر آخر مرة زرتُهم فيها، لكنها تركت في داخلي انطباعاً موحشاً عن عدم الترحيب. كان من المفترض أن نخلع أحذيتنا عند باب المنزل الرئيس، ونرتدي شباشب خاصة للممرات قبل الولوج إلى المنزل، بشباشب أخرى، تناسب السجّاد!

وفي إحدى المرات التي زارتنا فيها "أم مروان"، تعالت ضحكات "ندى" عندما خرجت من الحمام، ومعها كيس النفايات الذي يحوي قطعتي صابون مستعملتين لمرة واحدة. سحبت أمي "ندى" من تحت ذراعها، وأدخلتها لغرفتها، وقالت "اش، لا تسوين مشاكل ويه عمج وزوجته، تعرفين مرت عمج عدها واهس نظافة"!! كانت زوجة عمي تسخر من أقراطي كثيراً، وتقول لأمي: "كأن ابنتك غجرية "، ولم تردّ أمي عليها، بينما رمقتها أنا بامتعاض.

كان "قيس" الأصغر، صاحب العينين العسليتين والكتفين المتعضلتين كمحترف كمال أجسام، يتودد لـ"هديل"، ويحاول التقرب منها، وهي تصدّه بعنف، كنتُ أتوقع أنها تخشى سخريتنا منها، ولم أفكر أن لها حُباً مُبيتاً منذ المراهقة.

لم يرثْ ولا واحد منهما عقلية عمي أستاذ الميكانيك في الجامعة التكنلوجية، وصاحب أكبر مصنع تجميع للثلاجات في بغداد. كان علمياً

وعملياً في الوقت نفسه.

---

*) شلغم: هو اللّفت باللهجة العراقية، وله مكانة على المائدة العراقية، ولا سيما في الشتاء؛ إذ يسلق مضافاً له الدبس، ويقدم وجبة ثانوية.

لكل مَن في بيتنا لهوَة في أيام العطل: "هديل" في الطبخ، و"ندى" في متابعة البرامج والتقارير، وأنا أنقل عيني بين الكُتب والمجلات، أخي وأبي يزرعان شتلات الفاكهة، ويقلّمان الأغصان في حديقتنا بعد انهماكهما طوال الأسبوع في العمل معاً. أعينهما شاخصة إلى النخلة الكبيرة التي لم تُثمر هذه السنة، وإلى أمي الغارقة في صمتها وترقّبها للوقت، بلا هدف.

كان مساءً موحشاً، بلا تيار كهربائي، أو مولّدة، في ساعة مَلل استفزّني المذياع الصغير على مكتب أبي؛ لأنقل المؤشر بين محطاته المختلفة. لم يكن بمقدوري سماع شيء غير الصخب المتقطّع ووشوشات بعيدة الصوت، حتى عثرتُ على عالم فلكي، يحلّل الأبراج بأسلوب علمي مُتقن. شدّني حتى نهاية الحلقة، وصرتُ أتابعه كل مساءِ أربعائي، فبرغم ضجيج العائلة، طالما شعرتُ برغبة بالانفراد بنفسي، والابتعاد عمَن حولي، كانت مُغبشة عدسة حياتي. أحاول أن اوسّع حدقتي؛ لأستوعب تفاصيل أمي، وانفصالها الروحي عنا، أن أخرج الدلو ممتلئاً من بئر مخيلتي؛ كي أفرغه في شقوق الاستفهامات.

كنتُ أحاول أن أمسك الحلم في ساعة تسلّله إلى صحوتي، عاقصة عصب وجوده في بواطني؛ لأسمع صرخة، تشي بحياته! ذلك الحلم الذي لا أعي سوى حاجتي له. هل كان حباً؟ أم دثاراً يستر عري هلوساتي؟ لم أكن أعلم، وما أزال.

تنامت نزعتي المجنونة إلى دعك حجر الحدس في رأسي، وصرتُ أرقب عالم الطالع، اصطدام الكواكب بالميزان، وصوراً تستفزّ مخيلتي، وتجعلني أتوق أكثر لسماع المتكهنين ، تقفز "ندى" أمامي ساخرة "هذي آخرتها؟ أختنا منجّمة"؟!

ستكسبين مالاً كثيراً، لو جمعتِ نساء المدينة، وقرأتِ الطالع لمَن ستكون عانساً مثلك، أو هجرها زوجها إلى حين رُشد.. يليق بك أختي مع تلك الأقراط الكبيرة والخرز الزرقاء..

معاركنا التافهة. مما لا شك فيه أن برجها الأسد الناري حفزها لإشعال رماد المناكفة، وتوليع الجو، كنا لا نتقاطع معاً على خطوط عرضية في الحياة، لكنني أحبها، كما هي، بلؤمها البديهي، ولسانها الطويل.

كثيراً ما تسابقنا في المساء على السلالم، ونحن نعرج إلى غرفنا، تقول أمي: "ديرو بالكم توگعون، انتو مو صغار تگمزون، صرتو شابات"! تعودنا في ليالي الصيف أن نصف أسرّتنا على سطح المنزل، وفرشها. أنامُ بشكل أفضل عندما يكون القمر مُحاقاً، وأترقّب أحلامي السامقة إلى سماء اللا نهاية، أصل نجمة بأخرى، بسبّابة الفخيلة، وأتحاشى الكلام مع أخواتي الساخرات من عوالمي ، الفضاء حولي مترعٌ بشهب الأقدار، أتساءل مع نفسي: هل هناك حروب في كواكب أخرى؟!

أرفع رأسي من الوسادة ، أهمس لـ"هديل" أن "ندى" تتحين الفرص؛ لتجعلني أضحوكة، ترفه بها عن نفسها، ولماذا تستهجن وتستغرب جداً قراءة الطالع؟ طالما رافقتنا هي مع أمنا إلى جارتنا "جانيت"، المرأة الكبيرة التي تقرأ الفنجان. أصبح كل الجيران أهلها بعد وفاة زوجها، وهجرة ولديها إلى أمريكا. كنا نرافقها إلى قداس الأحد في كنيسة مريم العذراء، ونتذر الشموع لأجل السلام. الآن هي التي تتفقد أمي بعد أن آثرت العزلة، ولم تعد تتزاور مع الأقارب والجيران.

(استنفار الذاكرة قد ينكأ القرحة المتيبسة في قلبي؛ فتندى)

دخلتُ الجامعة في الوقت الذي كانت فيه "ندى" في سنتها الدراسية الأخيرة تحضر لتخرجها. لم أخشَ كثيراً الانتقال إلى مرحلة دراسية مختلفة، فقد عوّدنا أبي على خطوات واثقة واعتداد بالنفس. كنتُ فخورة بالقوة التي يمدني بها، وهو لا يعلم أني هشة كسنبلة، يتطاير قمحها كلّما هبت ريح الشمال. أحرص على مجاملة الجميع مع الاحتفاظ بمسافة حذر لحين التأكد من طبيعة الآخرين، كما كان ينبهني.

في سنتنا تلك، تعطّل قانون الزي الموحد، بحجة الحصار، وكانت موضة التنورات الغجرية رائجة بألوانها وتفصيلها ونوع قماشها الفيزون الذي يحزّ الوركين، ثم يتسع دائرياً على شكل "كلوشة". كنتُ أنسقها مع (شيرت بودي) يبين تفاصيل أنوثتي، وأنا أفتح شعري الناعم والكثيف؛ لينحسر في أثناء جلوسي في حزّ الكرسي الخشبي تارة، وأخرى يثير غيرة الطالبات، ونميمتهنّ. كان شعري كارثة الفتنة في الجامعة التي يركّب طلابها رادارات كشف ورصد للبنات الجميلات. فبرغم كل ما تمتعتُ به من خزية في الملبس، لم أكن أضع وقتها مساحيق مكياج، أو أحمر الشفاه. اكتفيتُ بكحل قليل تحت عيني، كي يُبرز اتساعهما.

حياة الجامعية أضافت لي الكثير، وركّزت محلول النضج بنسبة، تجعلني أفهم خارطة وجودي، مختلفة ومتشابهة مع طلاب وطالبات من خلفيات مختلفة، في وطن واحد.

عندما تعدّيتُ الثامنة عشرة، احتضنتُ أمي، وقلت لها "شوفي بنتج يا مريم، كبرتْ، وصارتْ طالبة جامعية". تبتسم، وتغرورق عيناها بدموع، لا تنهمر أبداً. أوشوش لها: كوني سعيدة بنا، يا أطيب أم .

دخلت مريمتي (أمي) في نوبة اكتئاب شديدة، فضلتها عنا، لم تكن دموعها تخرج، بل تنكيس في باطن جفنيها حتى ينتفخا، ترفض بشدة أي علاج نفسي . يحاول أخي الكبير ممازحتها وإضحاكها بلبس دشداشة أبي الفضفاضة مبتدئاً بتقليد صوته الأجش، محاولاً فتح شباك مرح وتبديل

جو بيتنا، الذي غزبت فيه الابتسامة، ونقص في صدره أوكسجين التفاؤل. يدخل أبي فجأة، وبخفة، يمسكه متلبساً، وهو يقلّد كل حركاته، يعصر كتفيه، ثم يربث عليها ضاحكاً.

مزت سنوات عجاف، وما يزال طنين الموت يدوي، ويُغلق منافذ الأمل لديها، يزداد فعل جرحها سوءاً، كلّما سمعت أصوات طائرات التحالف في سماء المدينة مخترقة جدار شباتها، أصوات تعبر حاجز السكينة مثجهة صوب أضلاعها المنكمشة خوفاً!

كنا لا نطفئ الإنارة أبداً، ونحرص على تشغيل المولّدة في وقت قياسي بعد انطفاء الكهرباء الوطنية. مزت سنوات صمتها مكثفة القلق أمام اكتراثنا بحياتنا فقط، فلا يوجد بيتنا فن يحمل رفشاً كبيراً لغزف ترسبات الحروب القابعة في بهو ذاكرة العائلة، ورميها في حواضن شفاء، لن يتحقق.

تزوجت أختي الصغرى "هديل" بعد أن أكملت دراستها الثانوية من ابن الجيران، المهندس "علاء"، وسكنت في ملحق (مشتمل) لبيت أهله. قالت لي إنه حلم حياتها الذي خبأته تحت جفنيها، وحرصت على أن يكون حقيقة!

هنا تنفتح كوة في سقف ذاكرتي على تلك الفترة ، فهناك أشخاص كانوا يزحفون في أنفاق المجتمع على بطون الحسرات، وكانت تتضارب الحكايات حول "منتصر"، الابن الثاني للخياطة "أم خافر" (التي اشتهرت في منتصف التسعينيات). طوله بين طول قزم ورجل قصير القامة، تعقفُ والدته بناطيله ٣ أشبار؛ كي لا يمسح بها بلاط الأرصفة، يدخن التبغ بفحش؛ لينسى خيبات قلبه المتعاقبة، في كل مرة يبعث بها خالته وأمه إلى إحدى حسناوات المحلّة، ترجعان إليه بوفاض خالٍ من الأمل!

تشكي خالته منه بين الناس، وتقول: "والله مخزينا هالولد، ما يختار إلا أحلى بنية بالمنطقة، والناس ما يصرفلهم ينطوه بنتهم"!

"منتصر" واثق من أنّه رجل لا يستحق أن يسخر منه أحد، فهامة الرجل تعلو بعمران جيبه، وهو يأخذ ما تخيطه والدته من بيجامات أطفال وصداري مدرسة، ويبيعه على ثجار شارع النهر.

في فترة الحصار، كان يتاجر بالعملة، يبيع ويشتري "الدولار" في شارع الكفاح؛ ليرجع في المساء، ويدخل منتصر إلى البيت راكلاً الباب من خلفه، عاقداً حاجبيه، تقول له أمه: "ليش يا ابني هيجي أخلاقك؟ مو الله موفقك ورازقك"؟! فيجيبها "على شنو موفقني؟ أخوتي الاثنين زوجتيهم من تعبي، وآني صافن ارجع بالليل مثل الجنب وحدي بالغرفة! انتظر العشا، وأنطمر وحدي".

يمسك بكرات الخيط المرصوفة قرب ماكنة الخياطة، ويرميها على الأرض، ينثر الدبابيس على البلاط الإسمنتي زاعقاً "هالمرة لازم تصير وتخطبيلي "ندى" اللي بالصيدلة بنت "أبو سامر"، مو مزة خيطتي إلها ولخواتها تنورات مال مدرسة؟! همه نفسهم مو؟ ومن تخطبيها لا تگوليلها تحجبي، أعرف بيج تحبين أمهات الجُبة والعباية"!

ضعفت والدته، ازدردت ريقها، ولم تبس ببنت شفة. خالته تثرثر ممتعضة كعادتها "ما لگى غير "ندى" بنت الحسب والمتغاويه بجمالها وكلّيتها"؟!

الكرادة ببيوتها الفارهة، وأهلها الميسورين والمتوسطي الحال، تتوارى بين أزقتها بيوت ضيقة ومتهالكة القدم، سكانها يتغمسون في عشقهم للمنطقة والأرض، يقطنون البيوت المتململة على حبال معيشة، تضنك، وتتيسر بمشيئة الله .

"منتصر" كان يريد أن ينتصر لنفسه مرة، أن يثأر لقامته، بتسلّقه أسوار بيوت عالية، تقطن خلفها أميرة أحلامه "ندى". وما لبث كثيراً حتى نكس علم أحلامه، منطوياً على يأسه حالما أخبروه أنها مخطوبة، وستتزوج قريباً من زميلها.

كانت المدة متقاربة جداً ما بين زواج "هديل" و"ندى"، وبعدهما بسنة واحدة، تزوج "سامر" من "حلا" ابنة الصديقة المقربة لأمي، الخالة "سعاد". كان زواجاً تقليدياً مخبأ لأخي الواقعي والواثق بأن البنية التحتية للأسرة ترتكز بمعرفة والذي الزوجة قبل الزوجة. "حلا" طيبة، وتحاول التقرب إلينا، والاندماج في نسغ العائلة، بكل ما أوتيت من لطف ومرح.

بقيت أنا أواري سوأة رحيل "ندى" التي آثرت الابتعاد مع زوجها إلى ماليزيا، تركت الوطن الذي ما انفكت كوارثه تتوالى، وتتوازى مع أعمارنا على سكة الأقدار. اختارت "ندى" زميلها المعيد "عمر": عملي جداً، وطموح، كان متوافقاً معها في التطلعات وأسلوب الحياة، إلى حد بعيد. لم يكترث، ولو بقيد ذكرى، أو رباط حنين لرحيله، برغم كونه الولد الوحيد لوالديه.

لم تكن أمي متهيئة معنوياً لتضاريس جديدة على سطح أسرتنا، وفراق "ندى" بقي كحرقصة عقرب في حنجرة صوتها الذي كان بالكاد مسموعاً!

كنت أستلقي مساء في سريري، وأتذكر "هديل" عندما كانت تلكزني بمرفقها، وترمي بمخدتها فوقي زاعقة: تتظاهرين بالنوم؟! أم ماذا، يا شقية؟!

- أحاول أن أجمع الحصى والأقراط من أرض نعاسي.
- هههههه، ستأتي "ندى" تتحفك بتعليقاتها، اسكتي، واطفئي الضوء، يا حالمة.
- سأضع سماعات في أذني، وأسمع موسيقى من الراديو، لعلّ أحدهم يتلقفني، وأنا أقفز من قمة الأحلام الشاهقة إلى وديان أحضانه، يلتهمني كزهر رمان، يفتحني، ويدللني كدمية، تنفخ فيها الروح، بقدرة الحب.

في الجامعة

كان درج البناية الداخلي يعزج إلى مختبرات الحاسوب، من جهة اليمين، وقاعات المحاضرات إلى اليسار.. نزدحم عليه في الصباح - أحياناً - وقت وصول الأستاذ، أو نتجفع لصورة تذكارية بعدسة "أبو عمر" مصوّر الجامعة الذي نناديه في أثناء تجواله اليومي خارج وداخل البنايات.

كروبات المختبر والبرمجة كثيراً ما تقزبنا للتعارف، لا أعلم كم مرة صادف أن يكون "ضياء" بمجموعتي. تجذبني أناقته غير المتكلّفة، عيناه الواسعتان الشقيتان، وأتجنب - في الوقت نفسه - الحديث إليه؛ كي لا أتوج اهتمامه ونظراته التي يختلسها بين الفينة والأخرى باهتمام متبادل، يفرد أساريره، ويبدد لؤمي معه.

نتهي من المحاضرة، وننزل الدرج.. يركض خلفي، ويقول "مينا، أقراطك فلتت"! أتحسس أذني، وأبدي امتعاضي لجرأته في المزاح. أحبش ابتسامتي عنه، واستمر في طريقي؛ لتأخذ بيدي "داليا"، وتخبرني إنها أمسكت بعنقه!

- فن، يا "داليا"؟ الله يستر!
- وجدته، فارس أحلامي.. "نزار"!
- "هيجي بسرعة بسرعة؟ يا بنية شوية ثكل.
- "ثكل شنو؟! والولد إذا طار يا زميلتي التكيلة؟ شوفيه شلون وسيم!

  كنت أتساءل مع نفسي: كيف لها - وبهذه التلقائية - أن تثق بطالب جامعي، بهذه السرعة؟! وتأمن ثرثرة المحيط؟!

- "مينا" رايحين نشتري لفات همبرغر من "مطعم علي اللامي" بالجادرية تجين ويانا؟

- لا، شكراً.

تقول لي: "يا مُعقدة"، أفضل لك البقاء، ومراجعة المحاضرات.

مرّت سنة كاملة على هذا المنوال من المناكفة والمناوشات الكلامية بيني وبين "ضياء". أوقد فتيل غيرته، وأنا أشتغل على الحاسوب مع مجموعة أخرى، فيها شباب، برغم ذلك، أسخر بصمت من إعجاب المتوذدين والمصرّحين بحبهم لي، بشكل مفاجئ. غالباً ما أدير ظهري، وأمضي متأففة، لم أفهم - أبداً - نفسي وقتها: لماذا ذلك النزوع إلى الظهور باللا مبالاة لمشاعر الآخرين، وارضاء غروري برفضهم الصريح والمباشر، رغم حساسيتي المفرطة لأي كلمة تصدر من أحد، قد تسيء لي حتى وإن كانت من دون قصد!

***

بدأ "ضياء" يحتل ركناً متحركاً في كل زوايا حياتي، لا أتخيل الجامعة من دونه، ولو مر من بعيد. كتب لي ذات يوم على آخر صفحة من كشكول محاضراتي التي طلبها؛ ليكمل ما فاته بعد غياب طارئ: "لا أعلم سر تعلقي بك، يا "مينا"، لكِ طراز أنثوي غريب، ملابس كلاسيكية أنيقة، وأقراط مميزة لكل يوم، تسرّين أنظار كل من يراك.. إلاي، فأستفز على نحو أجهله عند رؤيتك.. يُغيظني تجاهلك، وتقرصني شرورك المدغمة بالبراءة، كلّما دنوت منك".

كان حاذقاً بوصفه، فكلّما نأى عني، رمقته بنظرة، تقطّ أركان وجده؛ ليقترب، ولم أفهم دوافعي غير المبيتة للتواصل معه بمشاعر متأرجحة بين الضد والقبول. كما يفعل هو أيضاً عندما كان يتربّص بقدومي خلف بوابة القسم، وبعد أول خطوة لي على العتبة، يظهر صائحاً في وجهي "صباح الخير".. يمشي بعدها مسرعاً إلى الدرج، قافزاً الدرجات، منتشياً . لم أفهم - وقتها - إن كان يُحفز شحنتي النائمة؛ لأنجذب إليه أم أنه يسخر

مني.

عندما التقيته بعدها، لم أتطرق لما حدث، أو أبين أني قرأت ما كتبه لي، تجاهلت نظراته الحانقة، وأنا أخطر في مشيتي أمامه.

و كأنه كان يحاول ملء الفراغ العاطفي في حياتي بوجوده المستمر، فإذا به يفعل ذلك بقوة حتى كدت لا أستغني عنه.

***

أحضر مع "داليا" ومجموعة كبيرة من الطلاب مباراة كرة القدم بين قسمي الحاسبات والفيزياء، فتظاهرة بأني أشجع "ضياء"؛ ليسدد في مرمى الخصم، وكان هو خصمي مع ذاتي. أضمر له شفقاً، بمواساته لو خسر. لا أحب تعلّقه بكُرة، ليست بفُطر أقراطي، لعلّه يخسر القباراة، ويكسب نظرة شفقة، أو عطف مني. يجب أن أكون الدائرة التي يدور حولها، وفي مركزها، أن أكون مسعاه وهدفه، مباراته الرابحة من دون أدنى شك. كنتُ أحب أن يكون رهن نظرة، أو إشارة مني، ولم لا؟

تقف "داليا" و"نزار" على سياج الملعب، يَقهقهان غير آبهين بنميمة الآخرين، رميا حصى التقاليد خلف الباب الرئيس للجامعة، ودخلا بقدميهما اليمينين. طالما سخرا من مقولة تطيّر بها الطلاب (إن شعار جامعة بغداد ذا الأقواس المنفصلة هو مقصود لتفكيك علاقات الزملاء بالزميلات، وفأل سيئ للطلبة الفشاق). ترد "داليا" نكاية بهم: شعارنا سيكون (الجامعة محطة علم، يُزاد بها حب وحب، وسنعشق الأقواس بحلقات وصالنا، و"ليخسأ الخاسئون")! أضع يدي على فمها، وأقول لها: "استري علينا، ولا ترددي كلام الرئيس بهذه الطريقة"!

بانتهاء الدوام، أرجع للبيت. أحاول أن اشاركهم بعض الحديث حول المائدة، أدخل رأسي تحت ذراع أمي، وأقول لها: "أحبك، يا مريمتي". تبتسم، وهي تمسح على شعري.

في المساء، أندس في فراشي، وأسحب الغطاء إلى أنفي. تتعلق عيناي بالسقف، أضحك كثيراً من يومي، وأتساءل: لماذا كنتُ أغيظ زميلتي "زهرة" كلّما استقبلت مجسّات عقلي إعجابها بـ"ضياء"؟! أحذثها عنه، وكأنه ملك صرف لي، أضغط على عصارة الشر في بواطني، فتتحشرج الأفعى الصغيرة نافثة سم غرورها.

أعود؛ لأتقلّب يميناً وشمالاً، أتمور بين الأغطية ،أفرد شعري على الوسادة، ألملمه مجدداً، وأفرده. أشعر أن جسدي مغمور، يسوّره الحذر، وأنوثتي بئر نفط، لم ينقّب كائن عن وجوده، ساخناً أم متحجّراً..

ترى لماذا لا أكون متحزرة مثل "داليا"؟! وماذا أريد؟! اقرأ المعوذتين،
كما نصحتني أمي، وأدعو أن لا أكترث بخواطر، لا تليق بتربيتي.. ثم أنام.

أيام الجامعة كانت كلها صخب، جذل وتطلّعات إلى ذنى الآمال والسعادة، كنا أنا و"داليا" و"نزار" نأخذ استراحتنا في النادي القريب من قسم الجيولوجيا، وما نلبث إلا دقائق حتى نجد "ضياء" قبالتنا منتشياً بعفوره علينا. أستفهم منهم عن تواريخ وساعات ولادتهم. "داليا" و"نزار" كلاهما هوائيان متقلّبان، فـ"داليا" من برج الجوزاء، و"نزار" من برج الدلو. أما "ضياء"؛ فهو من برج الحوت، الذي تُملى عليه أفعاله، ويخضع لسلطة عليا، ولو لم تتوافق مع تطلّعاته. أما أنت، يا "داليا"؛ فهوائية كبرجك الجوزاء، تتناقضين، وتتعدد صورك في وجه واحد ، تُقذرين الصداقة، لاذعة اللسان (يعني الله يساعد اللي ياخذك هههه). الدلو على قدر حبه للفكاهة، فهو سريع الغضب والانفعال، وسرعان ما يتبدّل مزاجه.

تتعالى الضحكات بيننا، فالأبراج مسلّية، ولو لم تتطابق مع شخصياتهم.

يسألني "ضياء": ما مقدار تواصل أهلك معك في الطالع؟ هل يشجعونك؟

- نعم، كثيراً ما أتقفص دور عزافة في البيت، أنتقي أكبر قرط لأذني، وألبس توباً فهلهلاً، أضع حلقاً على أنفي، ثمّ أعقد ضفيرتي ببعض، أقول لهم "العجل العجل.. الآن الآن"! كانو يقهقهون ضحكاً عدا أمي، تحرك رأسها بابتسامة واهنة، وجبهة غضّنتها التجاعيد مبكراً. أقول لهم إن الكواكب تقترب من بعضها، وهو ما يشي بقيامة قريبة، ثمّ أزيد وقود الحديث بغمزة من عيني وأنا أبخ صوتي: "عليكم أن تبتهلوا إلى الله، وتستغفروا، وتزيدوا مصروفي الشهري"! يركضون خلفي، ويسحبوني من أقراطي، وأنا أصرخ بتوبتي النصوح.

استطردتُ قائلة: كنتُ قد تأثرتُ كثيراً بمنظر القبة

الفلكية التي حضرنا شرحها في إحدى الزيارات المدرسية لحديقة الزوراء ،حاولت أن أفهم إن كانت هناك حقاً روابط نفسية للإنسان مع القمر والطالع. يقول لي أخي: "كفى تخاريف، أنت تدرسين العلوم، وتُنجمين؟! خبصتينا بالتراچي والنجوم". لكني أخبرته أن الأمر يشغلني، ويستحوذ على تفكيري. وأؤمن كثيراً أن الشهور مرآة أصحابها، في تلك اللحظة الفلكية التي نولد فيها، نحمل نزعات وهواجس، لا تُستنسخ.

كنتُ أتبعُ بصمة العين التي لا تُزوّر في مطارات الأرواح كلّما سافرتُ في عوالم بعيدة، تاركة جسدي هامداً في تابوت الواقع. نعم، وأؤمن أن طاقة الرياح وانفجارات النيازك تؤثر على فيزياء السلوك وعبثية المشاعر، وأن وقت الشفق لا يمكن رصده إلا بمنظار العاطفة؛ حيث نرقُب ميلان الشمس في ذواتنا.

يضحك ضياء وكلّ من تحلّق حولي، وهم يُعلّقون: "كان المفروض أن تدخلي قسم علوم الفضاء والفلك، يا منون"! ، تلك الأحاديث بيننا كانت شيقة ومرصوصة فوق بعض كأوراق اللهانة ، مصفوفة كسعفات النخيل التي ظلّلتنا مراراً في حدائق الجامعة .

أتذكّر في مرة، وأنا أنادي "أبو علي" صاحب النادي ؛ ليحضر لنا ابنه "علاوي" الشاي، سألته: "حبيبي ليش تارك مدرستك"؟ ينظر لي بخجل: "مو أبويه مريض وتعبان وخواتي صغار، منو يساعده "؟!

أتمشى إلى حيث يجلس أبوه في الكافتريا، أخبره عن الأسى الذي أشعر به حيال قعود ابنه عن المدرسة، فيقول: "شسوي بنتي، دتشوفين الوقت حصار، أني مريض وفلوس تداوي ما عندي، وبرگبتي أطفال". أرد "الي ما عنده امكانية ليش يجيب أطفال هوايه"!

أرجع للبيت، أسرد لأبي ما حصل، فيقول لي: "عيب تسأليه كافي تجيبون أطفال، اكبري، مينا، هو رجل متزوج ".

أفتقد حلقات الثرثرة مع أخواتي، وأسمع أمي تنادي باسميهما في هذر: "ندى"، "هديل". كانتا بالأمس تتراشقان الوسادات فوق رأسي. الأخت الكبيرة المتعجرفة والأخت الصغيرة البلهاء. لكلّ منهما منطاده الذي يُحلّق به فوق سطح الأحلام، إلا أنا كُنت أسكُن الحلم، ولا يسكُنني. أنذش في شغاف الروح، أحفُر عالماً في فقاعةٍ، بِشمك مخيلتي.

ندى وهديل على طرفَي نقيض مني، وأنا على طرف سكّين، يُغرَش في خاصرة الواقع. كنتُ أوسطهن طولاً، عمراً، وقلقاً. أتوسط باحة الهواجس في قلب أمي، وأرتّل فيها آيات الحفظ، وأدعية الشفاء. فجأة تتذكّر أمي - برغم مضي عدة سنوات - قريبة زوج خالتي، التي كانت في العامرية أيضاً، وكانت تربطنا بهم علاقة طيبة.

- ما عرفتو أخبار "أم أسعد" أو اتصلتو بيهم ورا الحرب، أشو ماكو؟

ثم صمتتْ لحظات، وكأنها كانت تحاول السؤال مجدداً، والإجابة عن قلقها بعد أن لاحظت ارتباكنا. أخبرناها أنهم هاجروا بعد الحرب، وقد حذرنا أبي قبلها من سرد نهاية هي توأم لمصير خالتي في الملجأ، "أم أسعد" انتهت مع أولادها السبعة، وزوجها وحده نجا من المحرقة الجماعية بعد أن آثر البقاء في المنزل، وتأمين العائلة في الملجأ!

الجو الكابوسي في ذاكرة أمي كان مدمراً ومعتماً، فمجزرة العامرية وتداعياتها تركت جرحاً مفتوحاً في الروح ، تلك المجزرة كانت واحدة من أفلام، أخرجها تنين الحرب، بإنتاج أمريكي.

تعلّقتُ بالجامعة؛ لأنني كنتُ أنهلُ من تفاصيلها مادة الحياة، أخرجتني من معادلة العائلة، وأدخلتني أقواس التجارب، حتى بات حديثي مع أبو علي ، الحارس الفسِن أو مصور الجامعة له مغزى في مجريات يومي. أنظر عبر ناظور حياتهم إلى الجهة الأخرى من البلد، وأفهم

معاناتهم!

هناك عوائل، أنهكها الحصار، وأصبح التعليم أمراً ثانوياً في حياتهم. فعندما يحمل الإنسان شهادة ماجستير أو دكتوراه، ويبيع في "بسطية" الشارع من دون رخصة بلدية، كي يوفر تذكرة هروب، أو لقمة عيش كريمة لأهله ، تسقط - عندها - اعتبارات العلم من صفصافة الأحلام المشروعة، وتدعس عليها ماكينات اليأس.

في الوقت نفسه، أتذكر جيداً محاولاتي؛ لأن أنقل الحياة لأمي بنظرة مغايرة عن الواقع، وأجنبها الاحتكاك بفن ينقلون الأحداث بسوداوية مضاعفة، كنت أبرمج أفكاري، وأرثيها، كما تعلّمت في لغات الحاسوب، متيقّنة من سرعة بديهيتي وذكائي الذي أدرك اليوم جيداً بأنه كان خمرة غرور في كأس الشباب.

وصلت أختي "ندى" سواحل الجنة (أستراليا)، بعد أن نقلها مع زوجها قارب كبير بعنوان سفينة.. سمعنا تقريراً في الأخبار، مفاده: أن السفينة وصلت ساحل (كرسمس آيلند)، وقد نجت بـ٢٥٠ نفراً، بينهم نساء حوامل وأطفال، كانت قد أوشكت على الغرق، لولا وصول خفر السواحل؛ لنقلهم في الوقت المناسب.

الأخبار تناقلتها قنوات التلفزيون العربية والعالمية، وأعلنت أستراليا أن القارب الذي وصل بعد الأخير بيوم غرق، وأُصيبت سرادق العزاء في المدن الأسترالية؛ إذ إن الكثير من المهاجرين هناك كان لهم أهل وأقارب على ذلك القارب المنكوب في المحيط. أعلنت - بعدها - الحكومة الأسترالية أن المياه الإقليمية في المنطقة لم تعد خاضعة للسلطة الأسترالية بعد اليوم، ولن تكون الأخيرة مسؤولة عن المهاجرين غير الشرعيين، وبهذا تقطع دابر وصولهم وتدفقهم إليها.

اتصلت "ندى" بأبي؛ كي تُطمئننا بأنهم وصلوا، ونُقلوا عبر الطائرات إلى "بيرث"، ثم إلى "كامب ووميرا" (woomera detention centre)، وأنهما بخير، قد يمكثان بضعة أشهر لحين حصولها على الإقامة المؤقتة. كعادتها ندى كانت تتشوف من على رابية الكبرياء، وهي تعلن خلاصها من العالم الثالث إلى الأبد، جحيم الحصار والصراعات التي دهست على أحلام الشباب. فهمنا - بعد مدة طويلة - قصة معاناتها، في أثناء رحلة العبور إلى الحياة الأخرى، وكيف كان الصغار والكبار يتقيؤون، يصرخون عند أبسط مطب، بينما ينشب عراك دامٍ مرات عديدة بين الشباب، بسبب تحرش لفظي بإحدى البنات على المركب!

المهم أنهم وصلوا، بعد أن راهنوا على بقائهم أحياء في قارب تمزق في أحشاء المحيط. سبحوا لله كثيراً؛ كي يغفر لهم شهوة الخزينة، وجريرة التعزي من ماضي الوطن!

أخبرنا والدتي أن ندى بخير، وأنها سعيدة جداً مع زوجها في أستراليا. كانت تهز رأسها بالفهم، ولا تجيب، تغرق في صمتها، ولا تستعين بسترة

نجاة، توصلها إلى بز حديثنا.

يتصل عمي "أبو مروان" بعد أن سمع بأخبار "ندى" معاتباً أبي "شلون تقبلون بنتكم تجازف بحياتها بهذي الطريقة"، و"عمر" أفندي زوجها شلون يستهتر، وما ياخذ رأي أهلها، أو يخبرهم"؟!

يرد أبي عليه - وفي قرارة نفسه يشاطره الرأي، والاستياء مما حصل -: "هي چانت بماليزيا ويه زوجها، وما عرفنا - أبداً - بشغلة أندونيسيا، والمهزب إلي وصلهم بهذي الطريقة. شنو نسوي هسه؟ طلعوا، ووصلو، الحمد لله، يا أخي، ما صار مكروه".

لم أشأ ذلك الصباح أن أغادر المنزل إلى الجامعة من دون معانقة أمي طويلاً، وشم رائحة المسك في ثناياها. كانت عيناها تلتمعان، أشعر بنبضها المتوتر يعبر إلى روحي. قلت لها: "ستكونين بخير لأجلنا، مريمتي"، قالت لي: "اطفئي ماطور الماء، صريره أتعبني، لا حاجة لنا بسحب ماء إضافي اليوم إلى خزان السطح".

أطفأته، وأحكمت غلق الباب المطل على الحديقة أيضاً، والتي كانت تلعب بها الريح، وتطوحها، فتصدر صوتاً، يثير أعصاب أمي!

وصلت متأخرة إلى بناية الحاسبات بعد أن قضيت دقائق، أتأمل البقرة المربوطة إلى شجرة كاليبتوس كبيرة، وهي تحت رحمة بعض المزارعين المقيمين في ربوع الجامعة الواسعة.

كان الصداع قد شق عصب تفكيري، ولم أستطع المكوث بحالة متوازنة في قاعة المحاضرات، تسحبت من القاعة، وخرجت من أبواب الطوارئ الخلفية. كانوا قد صفموها لهاربة مثلي، لا زخم لاستمرارية قفلها.

هرعت إلى باصات الجامعة التي تقلني إلى بيتنا، نزلت في بداية الشارع، وإذا بي ألمح سيارة إسعاف وحريق.. الجيران يتجمهرون بذعر أمام سور البيت. اقتربت أكثر، وإذا برائحة عطب غلّفت مسامات التنفس، وأوقفت رئتي على كفّ هلع. أخي يجادل بعصبية، صوته يرعد ، عيناه تجحظان، وهو يركل حائط جارتنا.

قلت:

- ماذا حدث؟!

"هديل" ترتجف حافية القدمين، ودموعها تتطاير.

- أمنا احترقت بقنينة غاز انفجرت في المطبخ!
- لا، مستحيل، قولي إنك تمزحين!

أرى أبي واقفاً بذهول، ينبض عنقه غضباً، ضارباً بكفه

المفتوح على ساقه، وهو يصرخ: "لماذا لم تنقذوها"؟!

"كان الوقت قد أزف، وما من حيلة، تُرجعها، اطلب لها الرحمة". يربت على كتفه الممزض المسعف، ويواسيه بتينك الكلمات.

تجفدتُ أنا، ولم تطرف لي عين، أو تختلج عضلة، تمثيث اليوم لو كنتُ أطلقتُ صرخة، يدوي صداها في طبقات السماء والأرض. لو أني حملتُ فأساً، وهشمتُ زجاج الشبابيك في البيت، أو سيارة أبي، لعلي كنتُ انتشيتُ بهستيريا، تأخذني بعيداً عن الحقيقة، وأفرغت سموم حزني. ولكني تصرفتُ بوجوم صخرة، اكتسحها سيل غادر. وقفتُ واجفة، وغير مستوعبة ، حتى أخذني زوج أختي مع "هديل" إلى بيتهما. كنتُ أرفض تصديق ما حصل، جاء أبي في صباح اليوم التالي، وقال: "اقرأ قرآن لأمك، يا بنتي، لا تعذبيني".

لم أستطع تحمل مسؤولية العزاء في بيت "هديل" ومواساة الناس، تركت لـ "حلا" و"هديل" أجران حزني، ونمتُ بفجيعتي بعيداً عن النسوة المعزيات.

في تلك الليلة الليلاء، أعطيتُ أبي صندوق الإكسسوار الوردي، وأخبرتُه بضرورة دفنه معها، فلم أعد أحتمله. أخذه، وتركني من دون نقاش. كان منهكاً، وقد تحلّقت حول عينيه كمدة من هول الصدمة. صرخت "هديل" في وجهي: "خلاص دفنوها، انتي مجنونة! أي صندوق بعد"؟! رجعنا بعد أسبوعي انتظار، إلى أن انتهوا من ترميم بيتنا. كان "علاء" - وقتها - ينام الليل في بيت أهله، وإمارات الاستياء واضحة على مجمل تصرفاته معنا.

لم تتأكد الشرطة إن كان الحادث قضاءً وقدراً أم أن أمي انتحرت؛ لتنهي عذاباتها. لم يكن أحد برفقتها، أخي وزوجته كانا يجذدان جوازات السفر المنتهية الصلاحية، أبي في طريق عودته المبكرة من عمله بعد أن اعتمله هاجس خوف وقلق، بينما كانت هي تواجه خلجات

اكتئابها الذي لم تفكر - أبداً - بمعالجته، بل ورفضت أي محاولة لزيارة عيادة طبيب نفسي.

نعم، كنت أؤنب نفسي على تركها، وهي تتنقل بثقل في أرجاء المنزل، وتغير مكان أوعية الزهور التي أرثيها بنفسي على حافة النافذة، إلى أماكن غريبة؛ كالحمام، أو السلالم. بدأت ألوم من حولي، أقول كلّنا السبب. تتصل "ندى" من "كامب" أستراليا، وترمي بلوم الدنيا على رؤوسنا، وتقول "جيد، إني لم أشهد كل هذا"، مما دفع أبي أن يوقفنا، ويتكلم بحزم وحرقة: "لا تنكؤوا الجراح، لا أريد مجادلات وعتاب، ما نزال ننزف ألماً لفقدها المفاجئ.. الله أخذها لعنده، وهو أرحم الراحمين.. الله أخذها لعنده، وهو أرحم الراحمين.. لا تزيدوا في الكلام، ارحموني"!

كانت العودة إلى ديدنة الحياة أمر شاق، أحاول في صباحاتي غض النظر عن صورة أمي التي بزوزها أبي في صالون المنزل.. لكنّ ضوء الثريا المتدلّية بموازاة الصورة ينعكس على وجهها، ويشذني لمحاكاتها، وهي ترمقني في أثناء لبسي طاقية الهروب منها إلى الجامعة. أمشي خطوات وئيدة، ثم أرجع إلى الخلف، وأدير رقبتي صوب صورتها، أخاطبها بحسرة: "لماذا؟ كنا نحاول أن نُخرجك، يا "مريمتنا" من قفص الذكرى الفلغم بالحزن.. نُرغمك على حضور المسرحيات الكوميدية التي طالما أحببتها من قبل في المسرح الوطني ومسرح ساحة الاحتفالات الكبرى". تتحفلين شفاوتنا، ونراك لا تجيدين تمثيل دور السعادة.. تحرصين على جلوسنا في الصف الأول؛ كي لا يستفزك صخب الجمهور الضاحك الباكي خلفنا بردود أفعال مزدوجة، طالما عكست طبيعته الاجتماعية بقساوتها وطيبتها، في آن واحد. حاولنا كثيراً، يا "مريمتي"، لماذا آثرت الأفول مبكراً؟ وكيف كزرت مشهد الاختناق نفسه الذي شهدته خالتي في الملجأ المشؤوم ..... ارقدي بسلام معها"..

أصبحت الجامعة ملاذي الأول للخلاص. "ضياء" ومحاولاته الحميمة لتعويض فراغ الفقد والحزن الذي ألمّ بي، أو منزل صديقتي "داليا" التي تطلب نسخ محاضراتي، فأخبرها أن لا تأتي بنفسها؛ لأني سأزورها؛ كي أقلّل وجودي في بيتنا، كنا نقرأ طالع الفنجان، كما تعودنا، فسهبين في تخيلاتنا ، نلتف - بعدها - حول القال والقيل في الجامعة وحكايات الطلاب. تشعل والدتها الطيبة عود البخور؛ كي تطرد الأرواح الشريرة التي قد تحوم حولنا، وتقول لي: "عيني "مئونة" اني مثل والدتج، الله يرحمها؛ أي شي تحتاجين، آني موجودة".

قبل عودتي من منزلها - أحياناً - أزور أختي "هديل" التي تسكن قريباً منا، والتي تتذمر من طفلتها الصغيرة ومشاق تربيتها. أدخل للبيت، أجد أبي ينتظرني بلهفة. أقول له: "لا تقلق، أو تحزن" . فحدود الوطن - المنزل تغيرت بعد رحيلها. لا شيء في يومنا يشبه الأمس القريب غير لهاثنا المتكرر، ونفسنا المنقطع. ونحن نعدو؛ لننجو - فقط - ببقايانا، وليس للفوز بميدالية الجنة المستحيلة.

نحن - يا أبي - طارئون على الوطن، ثبذر فينا ألغام، لا تتفجر، ولا تترك أرواحنا نقية، لا شيء - يا أبي - غير نياشين الذكرى وأنواط الخيبة على أكتافنا.

يبتسم، ويقول: "كم كبرتِ، يا "مينا"، كلامك في صلب الحقيقة الغرة، كم أفتقدك هذه المدة بالذات، تختفين، ويلقي الحنين شباكه عليك؛ ليرجعك لي ابنة شقية حنونة.

لا تخشي شيئاً، حبيبتي، كوني كما تشائين، وكما تقدرين. وتذكري أن الهروب من المشكلة مشكلة أكبر".

(وهل ما أكتبه هو ترياق لوجع الذاكرة؟! أم تمهيد للخروج من سجونها؟! لا أعلم).

بدأتُ أعتذر عن دعوات أختي "هديل" المتكررة لزيارتهم بعد آخر مرة ثلمت فيه كأس الماء، من شدة غيظي الذي كتمته. لا أتصل بها إلا إذا اتصلت بنفسها، متحججة بأسباب مختلفة، لا أجيد صياغتها، وتحاول المسكينة بطيبها وسذاجتها أن تمزرها من دون أن تزعل مني.

لم أكن - قبل ذاك - أعي تلميحات "علاء" ومحاولاته لإطالة الكلام معي عبر الهاتف قبيل مناداة "هديل" لمحادثتي، وذلك الأسلوب الغريب في مقاربة صوتينا.

كانت "هديل" جذلى للغاية، على نغمات "فيروز"، يميس خصرها يميناً ويساراً، وتتماوج تضاريسها، كلّما انحسرت الشمس في فلك غبطتها. "علاء" اجتماعي جداً، وسيم، يفخر أخي بمصاهرته، ومطمئن لقرب "هديل" منا. مهندس ناجح من عائلة مرموقة. والدته مديرة ثانوية للبنات، ووالده قاضٍ متقاعد، ويعمل مستشاراً قانونياً في إحدى الشركات الأهلية الكبيرة. كان يصحبه للتسامر مع أبي أيام الجمعة.

في تلك الزيارة، كان يرمقني بنظرات، أخذتها على محمل المودة، وعلّقتها على شماعة الأخوة. كانت أختي تتذمر كثيراً من رنات الهاتف المستمرة للمشاكسة، وغلق الهاتف، تطلب من زوجها تبديل الرقم، أو مراقبة المتصلين.

بعد أن انتهينا من وجبة الغداء، جمعت الصحون في حوض المغسلة إلى إشعار غسلها بعد العصر، وأسرعت إلى تخدير الشاي. انتظرعلاء؛ ليدخل معي المطبخ من الباب واللحظة نفسها، في أثناء انشغال أختي بتحميم ابنتها. أمسكني من خصري، قرّب فمه كثعبان السواقي من فمي، وقال: كم أنت جميلة، يا "مينا"!!

اقشعر بدني، وشعرت بتتانة الغدر تفوح منه، فدفعته بكل قوتي،

وهربت لأختي في الحمام؛ لائقياً.

- لأكل بيه شي مينا؟ شنو صار؟
- لا، بس رح ارجع للبيت، ارتاح ورايه دوام.
- خلي أبو رانية (علاء) يوصلج.
- لا، ماكو داعي.. مع السلامة.

أخذت من يدها قدح الماء، وأنا أكزّ على حافته؛ كي لا أصرخ.. وكان زوجها قد توارى في المطبخ، ولم يجرؤ على اللحاق بي.

لا ملاذ كان لي غير الهروب، وفي طريق العودة، وأنا أنعطف إلى بيتنا، كنت أرى أعمدة النور تخفت، وتومض أمام عيني، أضرب على رجلي، وأغمغم: "كيف وقعت، يا أختي، من علياء الحب إلى وكر خديعته؟! أي قذر، جعله الله من نفسك، وسكنت إليه"؟!

في ذلك الجو الخريفي الموحش، كنت أحاور البدر الذي يسند ظهره لغيمة، توشك أن تنفجر ماطرة فوق رأسي، أناشده أن يُخرجني من بوتقة الحيرة وحفرة الخوف: "ماذا أفعل، يا ربي؟ أي تصرف أهوج وفج اقترف هذا المعتوه زوجها من دون أن يتردد؟! هل ألتزم الصمت، وأتْرك لمشرط الزمن تشذيب تشوهات هذا الحيوان البشري؟! أم أفضحه عند أبي وأخي؛ لترجع "هديل" مُطلقة بعد أن يلفق قصصاً، تسيء لها، عاملاً على إشاعتها بين الأهل والأصدقاء؛ ليبرر صفحته الموسومة بالغدر؟ لن يتوانى مثله عن فعل أي شيء"؟!

كنت أقدم قرابين الطاعة لصمتي ونزف لساني، وأنا أحتفظ بكسرة الزجاج في فمي؛ كي لا أعيد تأهيل نُطقه في حضرة الإدلاء بشهادتي على أحط الخيانات.

أي حسن نية كنت أصف بها تصرفاته الغريبة؟ وكيف لم أنتبه؟ ولم يخطر على بالي أبداً ما وراء أفعاله التي ارتبثها وقت دعس على قدمي "عمداً" قبل شهر، وتأسف. انحنيت - بعدها - وأنا أفتح باب الثلاجة؛ لأخرج مكونات

السلطة من الجرار السفلي، وإذا به يقرفص أرضاً قربي. أوشك رأسه أن يحتك بصدري، عارضاً مساعدته، ومعلّقاً أن لا داعي بأن أتعب نفسي في المطبخ، وأنه ماهر في تحضير سلطة فاخرة.

كنتُ - ببساطة وغباء - أشج الريبة من جذورها في كل موقف، لا أجد له تفسيراً منطقياً!

سنوتي وقتها كانت في الجامعة، ودراستي التي خففت من توتري واضطرابي في بيتنا. كنتُ أشغل أغلب وقتي مع "ضياء" و"داليا" و"نزار"، بين مختبرات البرمجة والنادي، طالما كان "ضياء" يردد بفلسفة غريبة: "كم أنتِ شريرة، بطيبتك، وطيبة بخبثك"! هل تراه تعلّق بي، وقد تصوّر أنه تناهى إلى منتهى هواجسي وأفكاري؟ أم ترانا تعلّقنا ببعضنا بعد وفاة والدتي؟ كان يغدق عليَ اهتماماً وقرباً؛ ليشعل جذوة الفقدان في داخلي، فلا أجد غيره، في الوقت ذاته، كان يرسم دائرة محسوسة حولي.. حذاري التقرّب منها.. ذات مرة، رأى "مصطفى"، وهو يعيرني كتاب نيتشه (هكذا تكلم زرداشت)، وكان مسهباً في شرح مفاصل فلسفته. لم أنتبه لحواسه، وهي تغلي كما شهدتها ذلك اليوم، وكأنّه ضبطني مُتلبسة بعناقه، وليس بكلام عادي. قال لي: "ها ما تشوفيله الطالع فد مزة؟ لو تشوفين برجه وتحجيله عن المدارات.

لم أشعر - أبداً - أنها لسعة الحب الأول، لم تُصبني الخفى، بل كان الإبهام سيد الموقف والاستغراب حليف مشاعري المتوتّرة. ربما كنتُ أحتاجه فعلاً؛ ليكمل فراغ العاطفة، ويسدّ شق الفقدان، أو يشرح لي عن "مينا" ما لا أعرفه عنها.

أوشكتُ أن أهديه معولاً؛ ليحطّم أصنام الرهبة في معبد حياتي، أن يهبني شجاعة، لا أمتلكها، وقد أمكنه حيلتي وتحايلتي بعد شطيرة أزمة مُزة.. لكنّها مُرغمة.

تقدّم وعيناه تقدحان غيرة "كيف الحبيت تقرئين عنوان الكتاب، وهو بين يديه؟ خصلات شعرك تدلّت أمامه.. سأشتري لك دزينة من مشدّات الشعر يا بنت.. افتهمتي"؟!

في اليوم الذي ظهرت فيه نتائج الدور الثاني للمكملين، وبداية فصل دراسي جديد، نجح "ضياء" بعد اجتيازه اختبار الثقافة الوطنية الثاني، تلك المادة التي طالما هزأ بها حتى وقع في مطب إعادتها.

كان درس الثقافة الوطنية مرة في الأسبوع، ويُجمع فيه كل طلاب وطالبات المرحلة الثالثة عند أكبر قاعة في القسم. شرح الأستاذ كان مملاً وباعثاً على سخرية الشباب الذين ما انفكوا عن وصفه بـ"دراكولا"، أو "ديناصور"، يسرقون قلمه، ويطرحون كتبه أرضاً لحظة استدارته على السبورة. أصوات مستفزة، تورث الغيظ في صدر المحاضر المستشيط غضباً منذ لحظة دخوله القاعة، والذي ما توانى عن طرد أغلبهم؛ ليكمل حديثه الوطني المؤدلج.

في اليوم نفسه، أوشك مصطفى أن يقتل المعيدة "زينة" ضرباً بعد ترقين قيده، بسبب الرسوب لسنتين متواليتين، لولا أن أمسكه "ضياء" و"نزار" في آخر لحظة. "مصطفى" كان معروفاً ببداهته وتوقد ذكائه، يلتف حوله الطلاب قبيل كل اختبار للاستفسار والشرح. استغربنا رسوبه، كان يزعق في باحة القسم: "نعم، أنت معقدة نفسياً، وعانس، ولن أستجيب لمراودتك، وإن فصلتني من الحياة، وليس الجامعة فقط".

أخرجه الحرس بالقوة من الجامعة، ومنعوه من الدخول مجدداً. تصوّرْتُ أن الغضب أفقده أدبه ورزانته التي وُسِم بها طوال السنة المنصرمة، حتى تيقنتُ أنه كان صائباً في ما اتهمها به، وإنها تعمّدت تحطيمه ردّاً على نظرته الدونية لها، وعدم تجاوبه مع اهتمام مبالغ، خصّته به. كانت قد حاولت فعل الشيء نفسه مع "نزار" الذي أربكها رعباً ذات مرة، بحديثه عن ابن خاله ضابط الأمن في القصر الجمهوري.

(أعترف أني كنت ساذجة في الكثير من المواقف، وسأكذب لو قلت طيبة وفسالمة، وربما أدفع اليوم ثمن مكائدي الطفولية).

كان من الصعب - في الحقيقة - أن أفهم ماذا أريد، أتلذذ بانكسار الطلاب الذين يقتربون مني بحجج مختلفة؛ كي يقتنصوا فرصة للبوح بإعجابهم. أمنحهم بطاقة خضراء، أضمر سحبها، وطردهم بعد دقائق، كنت قد استمعت فيها لما جال في خواطرهم، وسحبت رحيق العلكة من فمي؛ لأرميها على رصيف الأنا.. أشبع غروري بقهرهم ويأسهم من الاستحواذ على قلبي، لم أكن أضع اعتباراً لـ"ضياء" الغيور؛ لأنه - ببساطة - كان المقرب لي، وبلا شريك ينافس، أو يحتل مكانتي عنده، يخصني وحدي، ومن دون الجميع.

في السنة الأخيرة، وقبل حفلة التخرج، رأيت "داليا" ممسكة بذراع "نزار" في الممر المؤدي إلى القسم، ترتدي تنورة أقصر مما تعودت أن ترتديه في كل يوم. أشرت لها، وأخذتها إلى المصطبة المجاورة، بعثت "نزار"؛ ليشتري لنا سندويشات فلافل من الكافتريا.

قلت لها: "شصاير اليوم مو طوختيها". أجابت مبتسمة: "أهل نزار تقدموا لخطبتي رسمياً".

- "مبروووك".
- أبي اعترض بالبداية بذريعة أن "نزار" تركماني، وما عنده بيت، يعني أسكن في بيت أهله بغرفة، إضافة إلى اختلافات بين العائلتين، وشويه والدة نزار تتكلم من طرف خشمها!

أخبرته أمي وهيه مسيطرة دائماً: "كلنا عراقيين، واحنا ما كنا عنصريين بيوم، بالقلم العريض بنتك تحبه للولد، لا تعارض، ولا تسويها طويلة وعريضة، الولد مبين خوش ولد، وخلي نتوكل على الله".

أهلي طيبين، برغم هالات المظاهر، يطنگرون، وبعدين يفكون، وإن شاء الله نفرح بك، يا "هنونة" ويه "ضياء".

ضحكتْ، ضممتها بغبطة، وعقصتُ ذيل شعرها الطويل.

- لا أعلم، يا دالو ، كلّما رأيتُ "ضياء" يخرج أو يدخل إلى القاعة، يندفع الأدرينالين إلى رأسي، بصورة لا أفهمها، تتنشط دورتي الدموية التي تركد بغيابه. أشعر أن يومي ثمين بوجود "ضياء" . لكن؛ لم يخطر على بالي أمنيات كهذه، ولم أتصور - في الوقت نفسه - فكرة التخلي عن ظلي الذي تماهى مع خطواتي في الجامعة.

بعدها بيوم التقيت "ضياء"، وكأنه كان مدفوعاً للحديث العاجل معي، أخبرني بأن "داليا" و"نزار" تحدثا معه، أو وبخاه بشأني!

- راسي انفطر من التفكير ، أنا تالت أخوتي، يا "مينا"، لا أستطيع أن أطلب من أهلي تحمل مصاريف زواج وبيت، "لازم إخدم ٦ أشهر عسكرية، ووراها ألقى شغل، ما أقدر ألتزم بخطوبة. نزار أبوه متمكن أكتر مني، أنا أتخبط، يا "مينا"، هناك من يحثني على الهجرة، وهناك من يحاول أن يجد لي وظيفة بائسة، ويمنيني بانفراج الأزمة وفك الحصار.

لم أشعر بغير عرق بارد، يتصبب مني، وأنا أبدي استغرابي من هذا التصريح، وأنقل عيني بين السماء والأرض. لم أطلب منه أمراً كهذا، لم تكن لنا علاقة حب صريحة وواضحة، شعرت لسنوات بعدم مقدرتي على الابتعاد عنه، بحاجة ماسة لاحتوائه لي، إحاطتي، وغلق كل منفذ خارج نطاقه. لم أكن أفهم شيئا سوى أن هذا الكائن يعميني، ويخضني وحدي.

شعرت بحزن، جعل مشاعري خفيضة جداً أمام فورة الكبرياء، عندما أراد التنصل من روابطه بي، كنت ضئيلة جداً أمامه، وهو يتواقح بصراحته، فلم أجد كلمات توقف سقوط بنيان علاقتنا الجميلة لأربع سنوات.

من المؤكد أني لم أستطع وقتها القفز على كبريائي، فأجبته: "ضياء، إنت أكيد فاهم علاقتنا خطأ مثل ما فهمو "داليا" و"نزار"، إنت مثل أخويه، أمنياتي إلك بالتوفيق.

شعرت بخجله عندما أدرك له ظهري، تحسست

جرحي، وهو ينزّ قيحه ندماً على السنوات التي أمضيتها متعلقة به. علمت - بعدها - أنه أصيب بالشكزي، ويتخبط بين عمل وآخر، من دون أي هدف واضح.

آخر مرة التقيت "ضياء" كانت في حفلة زفاف "داليا" و"نزار"، كان قد رافقني إليها أخي "سامر" وزوجته "حلا"، لم يرفع عينيه من على طاولتنا التي شاركنا بها صديق "نزار"، "أحمد الساري" الناجح الأول في القسم، والذي كان يعمل نادلاً في مقهى (حي أون) بعد دوام الجامعة؛ ليعين أهله البسطاء. لم يجرؤ "ضياء" - وقتها - على أن يتقدم خطوة ونيدة نحوي، بل كان متسمراً في زاوية. رأسه متصلّب، عيناه شاخصتان، وكأنه ينظم خرز مسبحة، فرطت من يديه.

كان حفلاً صاخباً، أغاني تركمانية وعربية. تعمدت "داليا" كعادتها إحراجي بطلب موسيقى رقصة الفلامنكو من الـDJ. تعرف أن لا أحد يحترف رقصها غيري. طالما تدربتُ عليها، وأنا أنفرد في غرفتي، أضرب الأرض بعنف، بكعب حذائي، دقّات قوية ومستمرة، حركات انفعالية، تعابير وجه جادة.. غاضبة، ومشاكسة.. سابلة شعري الأسود على الجوانب، وطارقة صنوج جنوني..

- فلامنكو، يلاااا، "مينا" يلا!!

تأبطتْ ذراعها، وسحبتها مع بدلتها البيضاء البسيطة، وأنا أبتسم ابتسامة باهتة ومصطنعة.

- فلامنكو بعينك مدام "نزار".. ما تشوفين أخويه يمي.. طلاب الجامعة موجودين.. و"ضياء" نافخ نفسه وگاعد وجهه موزّم. ما اكتفيتي من سوالفك ويانه، يا صديقتي؟! شغلي فخك، أعزف الحب يذل، مو يشل الدماغ، يا عروسة.
- هههه، أوكي، خليها چوبي فنفن، ولا يهمك.

على غير العادة، هاتفنا بدأ يرن رنات قليلة ومتوترة، ثم يتوقف، رنات تشي بتردد والتباس عاطفي في أصابع المتصل، كأنها طلقات مخاض، تُفضي إلى خروج اضطراري من رحم اليأس.

كنتُ أنتشي شامتة، فلم يكن غيره "ضياء". وقد أخذتُ بثأري منه بعد ذلك الموقف السخيف الذي وضعني فيه. أنعتم، وأنا أجلس متربعة فوق الأريكة في هول البيت "سترى مسخ البُعد ماثلاً بشحمه ولحمه أمامك في كل مرة، تفرز إصبعك في قرص الهاتف؛ لتدوّر الرقم متباطئاً، ثم تغلق السماعة. كان "ضياء" من الصنف الذي لا يبزر، ولا يعطي فرصة لمعرفة ردة فعل الآخر تجاه تصرفاته، من النوع الذي ينقض، ويستأنف الحكم بينه وبين نفسه، ثم يستسلم إلى منصة النهاية عاقداً مشنقة المصير حول عنق القرار.

كان كل شيء قد انتهى، لا "ضياء"، ولا جامعة، حتى "داليا" و"نزار" بهتت علاقتي بهما، لانشغالهما بحياتهما الزوجية، حياتهما العملية. بدأت أشعر بالضيق والتذمر من كل شيء، وبالأخرى من الحبس الإجباري في زنازين الذاكرة التي باتت فلطخة بدماء نزلائها، ممن لبسوا بيجامات الخيبة، وتهيؤوا للموت برصاصات الحقيقة. الحقيقة تلك، التي لبست - لأجل أن لا تلمس شغاف روحي - كل دروع الهروب، وركبت غواصات شرود سريعة إلى أعمق نقطة في محيط النسيان.

ها أنا اعترفت لك - يا دكتورة - بكل تزهاتي وتفاهاتي في تلك المرحلة البينة من الشباب، والتي لم أتوقع - أبداً - أن يأتي ما هو أمز من مرها، وأخسر إلى الأبد مذاق خلوها. ها أنا أمامك - الآن - أهجو نفسي كل يوم، ومع كل موعد لي معك ومع الأقراص المهدئة.

الفصل الثاني

كل وجوه الناس تذكرني بك، ووجهك يذكرني بكل شيء.

محمود درويش

أخذث ما يكفيني من أحطاب هذه المرأة؛ لأشعل جذوة القلم، وأكتب؛ لأجزب البعث بعد الموت، اللقاء بعد الإقصاء، أستفزّ مؤخرة الماضي؛ ليجلس على مقعد الحاضر، متجشئاً الخيبة.. وقدماه تمتدان بأصابع منفرجة فوق طاولة الذاكرة ! ها أنا أكتب؛ لأشبع نظري من بحر دمها الفراق فوق صفحاتي .. ولأستحوذ على كل تفاصيلها التي لم يشأها الواقع لي!

كان لا بد لها من محطة استراحة بعد كز وفز بين أسوار وسطوح الأحلام، تأهبها للمنازلة على جبهات محيط نفسي متشنج، يعقبه إحساس بالانكسار والخيبة.

شعرت "مينا" بعد انتهاء الدراسة الجامعية بفراغ كبير، ورغبة حقيقية في بداية، لا تشوبها إخفاقات، ولا تضببها ذكريات. لذا؛ رغبت كثيراً بمقترح عمتها في الانتقال إلى مدينة الديوانية، والعيش معها، وهي التي لم تُرزق بأطفال. كثيراً ما أدركت الوحشة أوقاتهما مع تقدم العمر، وتمنيا أن تسكن معهما "مينا"، إلى أن يأتي نصيبها، وتتزوج.

على الرغم من مكانة عمتها لدى والدها، لكنه نفخ متذمراً ممتعضاً من فكرة ابتعادها، خسارتها، بعد أن تشرذمت الأسرة، ورحل الجميع عنه. حتى "هديل" سافرت مع زوجها الذي حصل عل عقد عمل في الإمارات بعد أن تعلّق جداً بحفيدته "رانية".

يحتضن رأسها، ويشده إلى صدره، تسمع وجيب قلبه يتسارع في أثناء تمتمتها "سنمث، يا أبي، اتركني أختبر نفسي، كما عودتني، أتأقلم مع حياة أخرى، أغير الوجوه التي اعتدتها، أجرب حياة الوظيفة، وأمارس طقوس الانضباط في العمل!

نعم، كانت قد توفرت لها درجة وظيفية في جامعة القادسية، بوساطة زوج عمتها لدى المحافظ، وبمؤهل شهادة علوم الحاسبات التي كانت مرغوبة في مكتبة ومركز الحاسبة في الجامعة.

تنشد "مينا" لذاتها ذاتاً أخرى، تتكون بخلة جديدة، تراودها هواجس، باتت مزمنة: "نعم، سأنسى وجه "ضياء" الذي تركتْ ظلّه يتوشح خلفي، ويتلاشى، وأنا متجهه إلى مدينة أخرى؛ حيث العمل، وحيث حياة مختلفة، تدعوني لاكتشافها".

كانت قد زارت تلك المدينة مع أهلها في إحدى السنوات، وشغفت بسوقها الشعبي المسقف المدهش، بساطة أهلها، وتلقائيتهم، فضول الجار

لاستكشاف جاره، والتنضت على خصوصياته، ثم قدح جذوة العراك الذي قد يفضي إلى مهادنة، ثم عشاء صلح بينهم. وارد جداً أن تثور حميته بعدها لافتدائه ونجدته، إن اعتدى عليه مستطرق غريب.

"مينا" ما تزال تجد في بيت عفتها حياة مثيرة، تُبعدها عن رتابة وروتين العاصمة. شوارع المحافظة وساكنوها، نفت ملامحهم عن كدح البسطاء منهم، لأجل لقمة عيش ناشفة، تُسكت نشيج القحط في ضنك الحصار الظاهرة جلياً آثار كدماته على وجه القسم الشرقي للمدينة؛ حيث يقطن العمال، ومن يمتهنون الحرف الشعبية البسيطة والفقراء. بينما يشغل التجار والأثرياء البيوت الفارهة، في أحياء الجزء الغربي، يخترق الجهتين شط الديوانية المتفزع من نهر الفرات، ويتوسط الجهتين مركز المحافظة، وأحياء الطبقة المتوسطة؛ كحي العروبة الذي تسكن فيه عفتها .

كان استقبالاً محفوفاً بالفضول والابتسامات المتوزدة في أول يوم عمل لها في مبنى المكتبة المركزية، الذي ينقسم إلى قسمين: من الأمام مدخل المكتبة المركزية، ومن الخلف مركز الحاسبة ومركز التوفل.

جامعة القادسية ذات المنافذ الثلاثة، اثنان منهما - أغلب الاحيان - مغلقان، وبوابة واحدة مفتوحة للطَلَبة. تتشابه مع جامعة بغداد بمساحتها الشاسعة، مع فارق أن أجزاء منها مخضرة، والأخرى جرداء. وتختلف عنها بجوها العام، وموظفيها، وحتى طلابها الذين يبدون أكثر اهتماماً برؤية موظفة في مقتبل العشرينات قادمة من بغداد، تشرئب أعناقهم من خلف الأبواب، كلّما نقر الأرض كعب حذائها نقرات مثيرة، أو سمع صدى صوتها بلهجتها البغدادية المختلفة الإيقاع. شعرت "مينا" بغبطة ورغبة بولوج هذا المحيط الجديد، لم تفكر في أي مردود مادي، برغم المرتب الزهيد الذي لا يكفي أجرة تنقلها بين المنزل والوظيفة.

تعلّمت "مينا" نظام المكتبة، وطريقة جرد الكُتب على الحاسوب الذي أصبح نظامه (الويندوز) مطمح تعلّم كل الطلاب والأساتذة وحتى الأطفال في ذلك الوقت. المكتبة مميزة بلوحات مصلوبة على الجدران، وكأنها صور المسيح، تشير إلى منع إحداث الضوضاء والتحدث بصوت عالٍ.

مرت الأيام و"مينا" تتفاعل مع الوقت بإيجابية، حتى أتى ذلك اليوم الذي دمغ كتف حياتها، عندما دخل شاب طويل وأسمر بهدوء إلى باحة المكتبة، رأسها لا يبلغ أعلى صدره، وهو يتقدم نحوها مبيناً رغبته بدورة تعليم برامج الحاسوب.

طلبت منه تسجيل اسمه وعنوانه مع دفع مستحقات الدورة التعليمية حسب تعليمات المركز !

عيناه العسليتان ترمشان بسرعة، وكأن رمد الدهشة تغلغل فيهما.

- شؤكت يا ست تبدي الدورة بلا زحمة؟
- إن شاء الله باچر الاثنين من ساعة ٩ إلى ١١:٣٠ صباحاً، والوقت نفسه الأربعاء.
- وقت مناسب جداً لوقت عملي.
- أهلا بيك.

طالما استاءت "مينا" من النظرات التي تأكلها رواحاً ومجيئاً لبيت عفتها، ولم تزد قنطاراً أو تنقص من اعتدادها بغرورها وخيلائها الذي يتليسها.

هل تتصرف وتتحزك على سليقتها؟ في هذا المجتمع المختلف؛ حيث تُكال الطيبة بمكيال، والنميمة بمكيال حتى يتعادل ميزان حياتهم. لم تكن - في الحقيقة - تعير اهتماماً كبيراً في ميزان تصرفها، وهي في طور بحثها عن راحتها الآنية، مزاولة عملها وخروجها من دائرة

الماضي.

"عادل" لم يعدل بنظراته في أول محاضرة تعريفية معه عن نظام الويندوز، يشاركه في الدورة التعليمية طالب ماجستير، كان نهماً في التعلّم أكثر منه، ولم يكف عن الأسئلة المتوالية، وطلب الإعادة طوال وقت الشرح. بينما "عادل" لا ينبس بكلمة أو سؤال إلا وعيناه صوب الحاسوب، برقبة مُتخشبة باتجاه واحد، وكأنه يستمع إلى مذياع، تنخفض وتعلو موجاته عبر أجواء الغرفة؛ ليختبر استقباله لترذدات محطة "مينا" ! أراد أن يملأ قلبه بصوتها الرخامي، ولا يكون إعجابه تقليدياً بامرأة، تعدّت مصاف الجاذبية في عينيه.

كانت الدورة بين يوم ويوم، اليوم الفاصل كانت تشعر فيه بملل واضح، تتجول في المكتبة، تشغل وقتها، وهي تعيد ترتيب الكُتب، كما كانت تفعل في مكتبة الأهل مع فارق برمجة أرقام الرفوف والكُتب، إلا أن هذه المكتبة تعاني هجراً وآثار أصابع قزاء هرموا الآن، ولم يعاودوا المنافسة على استعارتها، كما عهود خلت.

تعرّفت في عملها على "رشا"، زميلة تعمل في قسم البرمجة، تتابع رسائل الماجستير للطلاب. طيبة، وجمالها مخلط بغصارات النقاليد العشائرية، مرهون بإشارة ابن العم الذي حجر على حياتها؛ لأنها رفضته، لم يتزوج غيرها، ويهدد، ويتوعد، لو قبلت غيره. تحت مسمى (نهوة ابن العم).

لم تتقبل جسارة حبيبها، ورغبته المستمرة في الزواج منها، برغم أنف أهلها. يظهر استعداده لخطفها بعيداً مثل الأفلام، يحوم حول الجامعة بجنون مترقباً خروجها، وغير آبه بعواقب أفعاله.

وجدت رشا في زميلتها الجديدة نموذجاً يختلف كلياً عن ما ألفته من بنات مدينتها المستسلمات للقسمة والنصيب، أو المتخذات من ولدان السراب أخداناً. وجهها المشع بالبهجة يوحي بسعادة، لم تنكسر صورتها أبداً على أديم الحياة، ما فتئت تذكر وتثرثر لـ"مينا" عن ماضيها وحاضرها، فهي بنت بغداد الوديعة التي لم تواجه - بعد - جيش الممنوعات والمحظورات في المحافظة، فكل ملامح "مينا" نفت عن نعومة، تسربلت بها حياتها، وما انفكت عنها، ولم تنل الخشبة المعطوبة في لسانها عن بقايا خرقة، أو حريق، اجتاحها يوماً!

تجادلها:

- قولي، يا "مينا"، كيف له أن يستأنف حكماً متعسفاً، أصدرته عشيرتي، ويعيد لي حرّيّتي بثمن حياته؟ لا أقبل عرض بطولاته لإرضائي، كيف يزج بحياته في تهلكة؟ سيقتلوننا - حتماً - إن تزوجنا!
- دعيه بجعجعته الفارغة، ما عساه أن يفعل، إن كان يلوّح لنجمته البعيدة، ولا يطالها؟ دعيه يحلم، يهذي، بعد أن حرمت شوكة المستحيل لحاف أمانيه، وتركته في عراء الانتظار. لا تستخفي بآلامه

وجنونه.

مع اقتراب انتهاء الدورة، بدأ "عادل" يحضر في الأيام الفاصلة بين المحاضرات لغرض التدريب مرة، ولذرائع مختلفة مرات أخرى. كان جذاباً بساعته السويسرية الباهظة وعطره الذي يفرق المكان، ويصيب السابلة بالدوار.

فاجأها ذات مرة، وهو يغير "كود" ولهجة تعامله معها:

- (شهالحلاوة)، لديك أنامل طويلة، يا "مينا"، كعازفات البيانو. كنت أتدرّب على البيانو في الكويت، لكن؛ توقفت عندما رحلنا إلى الديوانية سنة ١٩٩٠. هل جزيتِ العزف؟

ضاحكة: أحب الموسيقى، أستمع لفيفالدي (الفصول الأربعة)، بشغف كبير، وأحب الإيطالي أندريه بوتشيلي، ذلك الكفيف، مولعة جداً بصوته، فهو يوصل لنا عبر ذبذباته ما لا نراه نحن. أشعر أن الموسيقى تعطيه أبعاداً أخرى لرؤية ما وراء الروح. مستدركة: لكن؛ هذه المرة الأولى التي أسمع فيها هكذا اقتراح، لم أعزف - يوماً - على أية آلة موسيقية، لا يوجد توجهات فنية في عائلتي، لعلهم يخشون هكذا تجارب، قد تضعهم على محك بالتقاليد، لا أعلم.

- نعم، أفهم عليهم، أريد أن أضيف بالمناسبة: عليك توخي الحيطة والحذر، يا ست، فنحن لسنا في العاصمة. في هذه المدينة، الناس يدمنون الثرثرة، بحركة لسان مكوكية، لا تهدأ.

- ماذا فعلتُ؟ ما قصدك؟

- العفو، "مينا"، لكن؛ أنبهك فقط، أن الاسترسال

بالحديث مع الآخرين قد لا يُفسّر بحسن نية، ومن السهل على ضعاف النفوس أن يلوكوا الكلام على أضراسهم المنخورة. أخشى عليك - ست "مينا" - أكثر مما تتصوّرين؛ لأنك جديدة هنا، و.. جذابة!

مبتسمة: شكراً لك، ما الفرق؟ أنت - أيضاً - تكلّمني، وأتواصل معك، لديّ مساحتي الخاصة، أتحزك فيها، وأتحدث كما أراه أنا مناسباً!

تناديها "رشا" في وقت الاستراحة؛ ليأكلا سندويشاتهما، ويشربا الشاي، بينما "رشا" تفضفض عما يعتملها من أسى ورغبة في التمرد. تمنيها "ميند" بأن الفرج على ساعة. ((متمتمة في سرها "إيييه ماذا أقول أكثر لها؟ أصير حكيمة مع الآخرين في الوقت الذي أواري فيه ضعفي وتنصلي من مسؤولية المواجهة مع الحياة أملاً في حياة أخرى"؟!)).

"رشا" ممتلئة الوجه بحاجبين كثين. من المعيب جداً - في أعراف المدينة - أن تخففهما بالملقط قبل يوم عرسها؛ إذ إن المتزوجة سيماها في حاجبيها المحفوفين.

كانت "رشا" قد انتقلت من قضاء الشامية إلى مركز الديوانية مع أهلها؛ ليتخلصوا من مشاكل العشيرة التي تحكم حلقاتها حول كبيرهم وصغيرهم. . ولن يتحرزوا من أصفاد تبعيتهم لها في بلد، عقال رجاله يلتف حول الشاجور والبندقية . رشا تصرخ بصمت، كلما لاح شبح ابن عمها من بعيد ، فلا وسيلة احتجاج غير نظراتها الممشوجة بالحسرة، ولا فسحة رجاء مع نهوة ابن عمها وقرار العشيرة المفصلي، والذي يسود القانون!

مرت أشهر قليلة، وفي بيت عفتها وجوم، لا يخلّف إلا وحدة. عفتها العاقر خلّفت من ظهر يأسها تماثيل على الطاولة، تغفز لها، وتحزك جفنيها، تضحكها، وتُرعبها، تقول لها عفتها:

- هذه التماثيل اشتراها زوجي في إحدى سفراته إلى الكويت بعد دخول القوات العراقية.

كانت "مينا" تتعجب أنها ترى التماثيل بمخيلتها على نحو كائنات بشرية، تشاركها هواجسها، وتدس أنفها في حديثها، عيونها تبرق بلون أزرق مشع . وتقول مع نفسها: "لعلّها مسكونة! لكن: هل كان هناك ما يُباع ويُشترى في الكويت بعد الغزو؟! أم ما يُغتصب ويُستباح؟! كان أبي لا يشتري حتى الفاكهة القادمة من الكويت؛ لأنها منتزعة من أصحابها الأصليين. كما الأرض. لم أعرف - من قبل - أن عفتي ساذجة وطيبة إلى هذه الدرجة"!

تخبر "مينا" عفتها، وهي تضع رأسها على كتفها وقت شاي العصر: "تعرفين - عفة - اشتقت إلى ضجة الحمام الصباحية، وانحناءة "هديل" الفضحكة على حوض المغسلة.. كنتُ أجر مشذة شعرها، وأتركه ينسدل على وجهها المبلول.. أتذكر صراخها (كافي "مينا".. ماما!!! تعالي شوفي بنتك ومزحها السخيف). صحيح مدلّليني إنتي وعفي "صاحب" على نحو مميز، لكن مضجعي تقطّعه ذكرى بغدادي الجميلة. وزعيق "سامر" الذي كان ينتظر تلفون المنزل شاغراً؛ ليتصل بـ"حلا" أيام خطوبتهما، وعندما تكون عند أهلها. أشتاق كثيراً لهدير العسل من فم أمي، الله يرحمها، وهي توقظنا للصلاة، مناكفة أخواتي وشقاوتنا حتى في حضور أبي، كانت أيام! برغم كل هذا الحنين، لا أرغب بالعودة بعد ما تغير الحال، وغيم الفراق فوق رؤوسنا".

تقول لها عفتها : ملأتي حياتي، يا منمن الحبيبة ، إنت بنيتنا الوردة"، اللي راح راح!

سامر يتصل؛ ليخبرها أن والدهما أصبح كثير التجهم والصمت، وأنه يثور لأقل الأسباب بعد رحيلها إلى الديوانية، لكنها تزدري كل ما يتعلق بالعودة، وتعلم جيداً أن والدها قوي القلب، روضته الأزمات على التحمل.

عيناها ما فتئتا معلّقتين على المباني والواجهات، تحاول أن تقرأ الاختلافات في توجهات الناس، تشتاق لصخب العاصمة حيناً، وآخر يرنو قلبها لهدوء البُعد الذي ارتمت تحت وصايته؛ لينسيها خشخشة الأقراط، أفاعي الحقول التي رأتها بشكل متكرر في مناماتها - ولاسيما بعد وفاة والدتها - وهي تخرج من كوة في الحلم؛ لتلدغها، وتعود، البُعد قد ينسيها رفيقها ضياء الذي كان جزءاً منها.

تقول لنفسها: "فُصل عني بجراحة كُبرى، لم أأخذ خلالها ما يكفي من المخدر، فبقيتُ تحت الصدمة، وعلى حدّ الصراخ".

لم تبكه، لم تدرك لماذا! ولم تستطع أن تنعته، كما يُقال في مثل حالته: "غادر، مخادع، أو مُستغلّ"؛ لأنه لم يكن إلا ضعيفاً أمام غشامة الوقت الذي حال بينهما. طموحه لم يتعدّ طموح كل مَن يمتلك شهادة جامعية مبلّلة بنقيع اليأس، شهادة البكالوريوس لم يفكر أحد بجدواها إلا وقت الهجرة، البعض يضيف إلى سيرته الذاتية شهادة ماجستير مُزورة من سوق "مريدي"، تُسهّل عمله في جامعات ليبيا، أو اليمن. آخر ما عرفته عنه هو مرضه المفاجئ ، وتخبطه بين عمل وآخر ، ما بادرت - بعدها أبداً - لمعرفة المزيد ، فلم يبقَ لها غير مشاعر متناقضة ومتضاربة، تموج في باطنها بهوادة تارة، وتمفصها أخرى.

"مينا" السارية في متاهة نفسها، هاربة اليوم إلى الديوانية بعيداً عن موطنها الأول، عن جامعتها، أهلها، تستعير ناظور الحكمة من عفتها، وتسألها عن خبايا المدينة، فتخبرها "شويه شويه، تكتشفيها، حبيبتي، الناس هنا طيبين وعنيفين، الحياة ما بيها تكلفة مثل بغداد، بس ديري بالج هنا الناس ما ترحم".

- وين ما أروح أسمع هالنصيحه .. هههه .

تأتيها بخبز التنور الحار تأكل رغيفاً، أو رغيفين مع مجموعة الخضرة الطازجة وجبن العرب، تقول لها عفتها "هذه تصبيرة إلى وقت العشاء".

تجيبها: والله، عفة، ما أگدر، رح تسمنيني!

- إنتِ جميلة، يا فتفن، لا تخشي العنوسة.

تضحك "مينا"، وتقرصها من وجنتيها الممتلئتين.

تحتل الفاترينة الزجاجية الحائط الجانبي في صالون بيت عفتها الذي يتوسط المنزل، حيث خشدت إطارات الصور في القسم العلوي منها، وتراصفت صور والدها "علي (أبو سامر)" وعفها "طه (أبو مروان)" في حقبة الستينيات الذهبية، تتحدث عمتها بشوق وحسرة عن تلك المدة، وهي تقلّب نظرها بين صورة في مطعم سمك في شارع أبي نواس، وأخرى في بستان لأقاربهم في الجادرية، وأخريات من طفولتهم مجتمعين.

تقول لها "مينا": كم اختلف شكل أبي الآن بنظارته السميكة وإطارها الأسود، التي يزحلقها إلى مقدمة أنفه، وهو يقرأ، شعره الناعم أصبح رمادياً، ووجهه تفضن كثيراً بعد وفاة أمي.

تزفر عفتها "من بقى على وضعه الأول بعد كل

المصائب في البلد "؟!

في آخر يوم لدورة الحاسوب، وبعد الانتهاء منها مباشرة، كانت مينا منهمكة في إعداد تقرير عن النشاط، وطبع شهادات تقديرية للمشاركين، ثربكها خصلات شعرها التي تزوغ منها عبر مخارج تهوية من كل الجهات؛ حيث يصعب إخفاؤها تحت الشال ، تقدم "عادل" بخطواته الوئيدة ونظراته الجارحة، وقال: "ممكن تمتحنيني، ست، لوحدي"؟ قالت له "ميد" بلهجة جادة : آه، ممكن، عندك ١٥ دقيقة، لا غير.

- لا غير؟!

أعطاها - بعدها - رزمة أوراق، في ملف أزرق، فتحته، وإذا بلوحات مرسومة بالرصاص والأقلام الخشبية الملونة، بعضها هلوسات ومجسمات متداخلة، وأخرى رسمها فيها بملامح وهيئة، لم تستوعب بأي هاجس تخيل خطوطها. شعرها منفلت بجميع الاتجاهات، ثوب عجري، وعقد يزين جيدها بأحجار، تفن في تلوينها. المفاجأة الأكبر كانت تلك الأقراط الحلقية الكبيرة! في كل صورة، كان يضع لها قرطاً مميزاً، يسحبها منه (وهي تتمعن في اللوحة) إلى ناصية الإكسسوار والذكريات.

جفلت "مينا" من صعقة المشاعر المباغتة محاولة التخلص من شحناتها:

- خطيرا كيف استطعت رسمي؟ وكيف تخيلتني بهذه الصورة؟ إني هواية أحب التراجي، وأنت تتميز في رسمها منسدلة، وكأنها توشوش في غار أذني.
- وجهك من أوحى لي بالتفاصيل، في غرفتي، استحضرت ابتسامتك وذكرى أنعشت قلمي، وهو يتلوى على الورقة مستجدياً لقاء.

أطبق "عادل" يديه كمحارة على كفها الممسكة

بالأوراق، وانحنى؛ ليقبلها. سحبتها بخفة؛ لتنزلق، وتتوارى خلف ظهرها، كان قلبها سندان خوف، يهرب من مطرقته. هل كانت بين فكي الموت الرحيم؟ أم العدل الأوحد لـ"عادل"؟ صوته المرتعش أسرى خدراً في بواطن روحها، وحملها على هودج النشوة؛ حيث يخفق القلب!

كانت المكتبة واسعة برفوف عديدة، ونائبة المدير "ست راجحة" تتحرك كالملسوعة في كل مكان، وتعض على شفتها السفلى الرفيعة كخيط. تلك المرأة التي ذهب خطيبها في بداية الحرب مع إيران إلى جبهات القتال، وعاد بعد معركة المحمرة الأولى؛ ليزف إليها جثة ملفوفة بالعلم. كانت تُبرز كتفيها بحشوة إسفنج تحت العباءة القاتمة، تُسدل شالها على صدرها المرتفع أكثر من الطبيعي، قد يحدث أنها تشعر باحتباس حراري، يسجر عينيها، ولا تعلم أبداً متى ينفّس عنه! فكلّما شرع المدير (دكتور قاسم)، أحد أساتذة الجامعة أو الطلاب، بالحديث مع "مينا" أو "رشا"، تحاذيهما، وهي ترسل أفافة، وتعقد أصابعها ببعض.

"مينا" أبدت استغرابها وارتباكها في تلك الدقائق الحرجة مع "عادل"، تنقل نظرها بين الساعة اليدوية ووجهه مشيرة إلى قرب انتهاء وقت الدوام، مع ابتسامات متعسرحة، شرعت بسرعة إلى تغيير الموضوع؛ كي تفلت من ردة فعلها، وتتخلص من شحنة التوتر:

- ست "راجحة" تجاوزت الخمسين، ولم تتزوّج، ترصدني دائماً، تجوس كل الأنحاء، وتتعقّب أثري عندما يتجمع الطلاب حولي، فأتجاهلها، وأوليها ظهري، هي لا تحبني، ربّما لأنني أفهمها، وأقبل غيرتها نُبلاً مني ألاذعها به متعمّدة !

ضاحكاً: شريرة، ست "مينا"، حقها، الحروب تركت عوانس وأرامل بعدد شعر رأسنا! لا تسخري منها، فالزمن دوّار، وقد تصبحين بدينة وشمطاء، من دون زواج.

مبتسمة بمكر أنثوي: ممكن، سيد "عادل"، أشكرك!

يقولون عني طيبة وشريرة، لكن؛ لم أستخدم دواة شروري معك حتى الآن.

كانت "مينا" مسؤولة عن الحاسبات العشر الموزعة في المكتبة ومركز الحاسبة، تساعد الطلبة في طبع بحوثهم، وطلب المراجع من مكتبات، أو جامعات أخرى، عملها يفرض عليها التنقل بين قسم الحاسبة الالكترونية وصالة المكتبة، ويحث "عادل" على اقتفاء أثرها، متظاهراً بأن المصادفات وحدها تُخاتله معها.

وبالتوازي، بدأ يتردد بكثرة، وبصورة ملفتة لاستعارة كُتب بعناوين مختلفة. كانت "مينا" تستغرب تركه لعمله ساعات طويلة، وهو يعلّل بأن شغله الخز مع والده يتيح له التحزك من دون حرج.

الجو في الدوام يسوده غموض وارتياب أحياناً، فلم تفهم "مينا" في أثناء عملها أحقية وجود ذلك الكائن، بشعره الطويل، وقامته الضخمة، الذي يدس أنفه متنقلاً بين الطلبة في غرفة المطالعة والموظفين تارة، ويفتش حقائب الطالبات، أو يرسلها للأمانات تارة أخرى. يزأر بحقد، لو استشعر أن من بين الطلبة الجالسين فرد يصارح بحبه، أو يهمس بإعجابه لفتاة.

كانت ظهيرة خميس عندما حضر "عادل" بحجة إعادة كتب، لم يكمل قراءتها؛ ليستعير أخرى، لن يقرأها بالتأكيد. الصمت والهدوء حالة عامة في المكان، طلب منها بصوت خفيض معاونته في إخراج الكتب المرصوصة في الكيس، فشبك يديها بقوة حتى تعرّقت أصابعها التي لم تنشد عتقاً من حبائل لهفة. التفت حول معصم القرب، عيناه تقدحان شرر الجنون، وشاربه الخفيف يخفق فوق شفة متعطشة لخيال قُبلة. لا تُروى إلا بينبوع ريق دافئ.

تقول لنفسها بعد هنيهة: هل كنت متبلّهة؟ أم بلهاء؟ لا أعلم ما كان يساورني حينها، رغبة في الهروب منه؟ أم الارتماء في أحضانه؟ ما كنتُ إلا لأختض مع صوت المنبه وناقوس التوقف في معبد العقل، تراجعت خطوات إلى الخلف، والدقات تعلن اصطفافنا الإلزامي خلف طابور الشرائع، وأخذ التحية عند الوصول إلى سارية الحشمة.

تجاهلت مينا النظرات الشزرة لذلك الكائن البدين، الذي ترك كل من في المكتبة، وانشغل بهما. يراوح يميناً وشمالاً، وكأنه في ساحة تدريب عسكري. كانت تصرفاته تبعث الشك بأنه مندس في البناية من قبل جهاز الأمن العام، وما أكثر مرتزقة النظام وقتها. ولاسيما وأنها في إحدى المرات لمحت رأس مسدس في الجيب الخلفي لبنطلونه المنتفخ.

ما أرهبها للحظات فقط هو ذلك الصوت الذي يتردد في دواخلها "إنتي وين "مينا"؟ نسيتي إنتي طلعتي من بغداد رحتي الديوانية مو لأوربا؟ كافي خيال، ثاني شي منو "عادل"؟ شلون تتعلقين بشاب من صدفة، وكم لقاء؟ و"ضياء" ؟ نسيتيه نو؟!

كان "عادل" فرصتها؛ لتكتشف من تكون، وكيف تختار بملء قلبها، بكامل أنوثتها، لا تستميلها عاطفة زمالة، عشرة، أو مواقف طريفة، تتحول إلى فكرة خب، وليس خباً. قد نحب الفكرة بمخيلتنا، ونتقفص دورها؛ لأن الأدوار الحقيقية لم تتقدم لنا؛ لنمثلها بقصة صادقة. كانت - بالفعل - فرصتها لتعرف أن الرجل الذي يتلاشى مع المكان والزمان كان حضوره آنياً فقط؛ لسد رمق احتياج، أو تعبئة فراغ وجداني في الروح.

في هذه المدينة؛ حيث تتجزد "مينا" من مظاهر العصر، تسريحات الموضة، وتهريج الشباب في بغداد؛ لتتماهى مع بيئة متواضعة، يتقدم هذا الـ"عادل"، يتفرس في ملامحها، يبحث عن قدره بين حاجبين وعينين، سهمتا في حضرة وجهه. رجل يفتش عن امرأة، تمزج في فرشاته ألوان التناقض والعقل بضجيجها وهدوئها، انفعالاتها وسكونها. أنثى غجرية، ترتدي معطف امرأة عصرية.

كل مرة يلتقي بها "عادل" كان يهديها رسماً، ملوناً شفتيها بلون الكرز، وراسماً شعرها ملتفاً ومنسدلاً على كتفها الأيمن، مركزاً على إبراز قرط حلزوني متأرجح من أذنها اليسرى. رسمها ذات مرة كأنها جنين في ثلاجة خيلى.

طالما استغربت رسمه الأقراط، وهو لم يرها بهما. لا سيما وأنها ترتدي العباءة الفضفاضة والإيشارب الذي ينزلق جانباً، ولا يثبت - أبداً - على شعرها الناعم. بشرتها البيضاء تشوبها حمرة، توحي بالخجل والكيد الأنثوي الجميل، تتوزد وتحتقن بسبب الجو الساخن والجاف.

يقول لها: تحجبي زين، هنا النامس فاتحة عيونها عليج، إنت حلوة وايد، وهنا البشرة البيضا غواية.

تقول ضاحكة: هههه، ثبالغ أنت، أحببت المدينة، أحاول جهدي أن أراعي التقاليد وتفهم الفرق بين عائلة محافظة في الديوانية عن عائلة محافظة في العاصمة، ترتيبٌ على ضفاف دجلة، والفرات اليوم يسقيني سلسبيل محبته، ما أسعدني!

آخر مرة رسمها "عادل" بثوب شفيف، خصلات شعر ذهبية منكوشة وأقراط طافية على وجه بركة، تقف في منتصفها. جذبها تميزه وتأثره البليغ بالفن السريالي، وأحياناً تطلق عليه "عادل دالي" بدل "سلفادور دالي". كان هذا الرجل مهووساً برسم ما وراء النفس وخلف أبواب الحقيقة .ممتلئاً بالتناقضات، فهو يتعامل معها بانفتاح رجل أوربي، ويخشى عليها من المحيط، متمنياً حصر تحزكاتها بين خطواته فقط.

لم تكف "مينا" عن متابعة برنامجها الأربعائي في الراديو عن الأبراج والطالع، الذي تحاول الاستشفاف منه عن حاضر، يخيفها فيه نجم الغد المحلّق في فضائه. زاد اهتمامها بعد أن عرفت أن "عادل" من برج الحمل الذي لا يحب أنصاف الحلول، إما أن يحب بصدق، أو لا يحب إطلاقاً. يعتلّ مزاجه العاطفي بسرعة، وتحاول امرأة الميزان أن تجذبه إليها؛ لأنه الوحيد الذي يعرف كيف يحترم مساحتها الخاصة، ويمنحها حياة متوازنة! صرّح صاحب النشرة لذلك المساء - أيضاً - أن : بداية العلاقة مع برج الحمل تحتاج وقتاً طويلاً؛ لكي تكتمل، فهو ليس بالكائن السهل الاختراق، امتلاك قلبه أشبه بالمستحيل في البداية، برغم تعاطيه وانسجامه مع أوّليات المرأة الميزان.

تخفتْ صوت المذياع محتجّة: أي مستحيل! صارت ماسخة وسخيفة، أصلاً "عادل" كتاب مفتوح، وأنا فسختُ فصوله، وكواكبه تتيه في مداراتي.

اهتمامات "مينا" بالطالع شذت "رشا" المتعطشة لشربة أمل، تبلّل بها أشداق أحلام، تكلّست، وتحجّرت. كلتاهما شرعتا بتطريز عباءة الفضول والبحث عن المجهول. ترافقتا ذات مرة إلى امرأة كبيرة في العمر، تفهم الفارسية والعبرية ، تقرأ المستقبل بكتاب، تتهالك أوراقه الصفر بين يديها، أخبرت "مينا" أنها ستعيش في قصر كبير، يثير حسد كل من حولها، لكنه من دون ماء وكهرباء. اعتصرها كلام العرّافة، وأوجس قلبها؛ ليذهب ذهنها بعيداً، بأنها قد تتزوج، وتُحرم من نعمة الأمومة كعفتها.

تميز "مينا" جارة عمتها قبل أن تدلف البيت من رنة الجرس المستمرة تحت ضغط إبهامها؛ ليتعجلوا بفتح الباب، وهي تحف بسلامها الطويل وقبلاتها الستة المتواصلة، والتي لا تنقصها أبداً، ثم شحطة قدميها في الممر الواسع، والمؤدي إلى الباب الداخلي. بدأت تكثف زياراتها طمعاً في خطبة "مينا" لابنها الذي يعمل سائق سيارة (ريم) بين مرآب الديوانية وبغداد. "مينا" كانت تبتسم بسخرية، وتداعبها مفهمة إياها أنها لا ترغب بالزواج الآن، تجلس المرأة على الأرض، وتطوي تحتها ساقيها القصيرتين، وتقول متوددة: تعالي، أقرالك الكف فدوة، خطوط إيدك واضحة.

- لا، خالة، شكراً، أعرف إيدي وبرجي وكل هالسوالف. راح أشد راسي بشيلة عمتي؛ لأن مسطورة من دوخة الدوام.

- زين، تعالي ويانه لكربلاء للزيارة، وتتونسين هوايه.

- عفواً، ما أكدر، مو عمتي أخذتني وياها قبل شهر.

لم تكن "مينا" تستاء من بساطة هؤلاء الناس، بل تشعر بحالها ممثلة سينما، يتحلق حولها معجبون كثر، يزيدون من طراوة غرورها . عمتها وزوجها ينامان بعد المغرب، وكانا "مينا" و"عادل" يدردشان إلى ساعة متأخرة في الليل عبر الهاتف الذي تسحبه "مينا" في الليل، وترجعه قبيل الفجر إلى صالون البيت. تتعثر "مينا" بسلك التلفون الطويل - أحياناً - بسبب جلابيتها ذات القياس الكبير، والتي تعودت لبسها في بيت عمتها.

تخشى بتلك القرقعة أن تقلق منام من في البيت، ويتعكر صفو حديثها مع "عادل"، لكن؛ لحسن الحظ لم يشعر بها أحد، فقد كان شخيرهما صافرة تتقطع، ثم تستمر حتى الصباح.

كان بندول الساعة الحائطية يقلقها أيضاً، وهو يطنطن في الرأس، فتضطر إلى نزع البطارية، وإرجاعها فجراً.

عندما متن الهزيع الثالث سرج الليل، وامتطى الهوس، همس لها ذلك الـ"عادل" أنّه سيجزب بقلبها كل المبيدات؛ ليختبر صمودها، أو تخاذلها، وعليها أن تُثبت له بأنّ لا صوادم في الحياة، توقف طريقهما إلى السعادة. تجيبه بأنها ليست فأرة تجاربه، ولا تحب هكذا دعابات. التمازح في مصير القلب كفن يرتمي في المحرقة؛ ليجرب لسعات النار.

أتراه كان يضمر في دواخله شكوكاً بأنهما لن يجتمعا؟! أم كان متأكداً وقتها؟!

لم تظن هي ذلك، وهو الذي أخبرها عن عزمه على الارتباط الرسمي بها، وأنه ما عاد يحتمل أكثر تلك اللقاءات المقتضبة والحديث عبر الهاتف.

بدأت تقترب روحياً منه، تحدثه عن أهلها، وتفاصيل تشتتهم، طاقتها المتبددة دوماً في أقل انفعال، وشعورها بخواء الحياة، ورغبة عارمة في الهروب. أضافت أن في طيات روحها أمكنة للهدوء والسكينة، وأخرى تتصرف فيها كبهلوانة في سيرك، فهي تحب رقصة الفلامنكو الإسبانية، وتحب الاستماع إلى سحر جيتارها.

أبدى دهشته قليلاً، قائلا: هههه، بوتشيلي وفلامنكو.. وهنا في الديوانية، يا "مينا"!

شعر بنشوة التلامس الروحي، وبدأ يحدثها عن طفولته في الكويت، وشوقه إلى تلك الأيام، ولاسيما أن أخته الكبرى متزوجة من كويتي.

يغني لها عبر الهاتف أغنيته الأثيرة لـ"عبد الله رويشد"، "علمني عليك، علمني عليك، أنا للحين أجهل كل شي فيك".

قالت: "أكو أكثر من هذا العلم بعد؟! على فكرة أغنية "الرويشد" أحبها جداً، من كنت طفلة، وتطلع بالتلفزيون.

تسعد كثيراً، وهو يقول: يا منمن، منونة، ومنية الروح، ومرآة السماء.

- واو، شاعر ورسام ورومانسي انت؟!

ضاحكاً: "لا، بس تذكرت بيت شعر حبيته لشاعر عراقي، اسمه صفاء الحيدري:

يا منية القلب ذاب القلب واستعرا
فاستنطقيه إذا مـا خلتـــه حجرا
قلب من الوهم لا أحتاج في جسدي
إن لم يكن لجسدي قلب يُرى ويَرى

جن جنونه إحدى ليالي الجمع، واتصل بها؛ ليخبرها بأنه سيكون خلال نصف ساعة عند سياج البيت، لم يلتفت لتوسلاتها وخوفها من أن يلمحه الجيران، أو زوج عفتها، فتقوم قيامتهما. لم يستطع رؤيتها بعد كل تلك الجسارة والمغامرة في المجيء، فالأبواب حرصوا جداً على أن تكون موصدة في أثناء الليل. ترك لها كيساً ورقياً بين أغصان الأشجار المتشابكة والدالية على مشبك السياج، هرعت لأخذه مع أول ساعات الصباح بعد أن أضنتها ليلة طويلة، التحفت فيها اللهفة والفضول، وهي تشعل وتطفئ لمبة النيون بتواتر، وتدور في الغرفة مع حركة المروحة السقفية التي تُبطئ سرعتها تارة، وتزيدها أخرى.

وإذا به قد رسم على قطعة قماش امرأة غجرية، غرز بين نهديها دبابيس ومسامير، وعلى شفتيها عود ثقاب يشتعل.. أهداها لوحة إيروتيكية سريالية، تترجم لغة عقله الباطن، تنيلج من خطوطها غواية، وتُسرب بألوانها اشتهاءه، وولعه بها، ورغبته الجامحة بقُربها.

من فرط ما فُوجئت، وتأثرت، تمارضت في الفراش

أمام عفتها مذعية الحمى، أسندت كأس ماء مثلّج إلى وجهها؛ كي تشعر بلذة البرودة، وهي تسري إلى وجهها الساخن.

في المدة نفسها، ذهب مدير القسم "د. قاسم" من دون علمها؛ ليخطبها من "صاحب العلي" زوج عفتها، طالباً وساطته لإيصاله إلى منجر والدها في بغداد. أخبرتها عفتها بأنّ الرجل دخل البيت من بابه، الرجل رزين ومحترم، كانت عفتها فخورة به، ولم تعلم أن "مينا" تهوى عابر أسوار، كاسر أقفال، وكل من يكبح بصلّف فرامل المقطورة التقليدية.

- عفة، مو على بالي الدكتور، هو إنسان محترم، لكن؛ لا يلائمني، يوم يتقدملي السايق، ويوم دكتور؟؟ هههه، شنو القصة؟!
- المرئة على نياتها؛ وبسيطة، وتمنت تاخذج لابنها، والدكتور ما عايزه شي، منو على بالج "مينا"؟
- تريدين الحقيقة عفة؟ شاب من الديوانية، اسمه "عادل جاسم العنزي"!
- سامعه بابوه من عمج "صاحب"، بس هذوله مو جوي من الكويت بدون جنسية؟ بس شوفي أبوج بقبل ينطيج إلهم؟ شنعرف عنهم؟ هذولة - يا بعد عمتج - ما عدهم صاحب صديق، يا ربان يمشي مركبهم يرحلون وياه، ما تعرفيلهم سكة ويه يا حكومة، خصوصاً بعد أم المعارك، يا بنيتي!
- عفة، شنو هالكلام؟ شنو علاقتنا بالسياسة والحكومة إلّي خربت بينا وبين الجيران؟ هفه عراقيين بالأصل، إذا الولد خوش ولد ما أتصوّر أبويه يعترض. هو واعي وحكيم، إنت تعرفيه زين.

بعد صمت عفتها وموقفها المستوحى - بكل تأكيد - من كلام زوجها، عقدت "مينا" حاجبيها، ودلفت إلى غرفتها في الطابق العلوي من المنزل، ذيل لونها، وغارت

عيناها في محجر الشرود.

لم تنقل "مينا" الحوار الذي دار بينها وبين العفة إلى "عادل"، فقد يتعكر صفو علاقتهما التي أوشكت أن تؤتي ثمارها بعد أن يسافر "عادل" ووالده إلى بغداد للقاء والدها وأخيها. اتصلت بـ"هديل" كاتمة أسرارها، وأخبرتها بشقاوة أن ذيلها المعقود بطابع النحس سينحل قريباً. أما "ندى" المهمومة دوماً بـ"ندى"؛ فكانت تنوء بحمل إكمال دراستها، ومعادلة الشهادة في أستراليا بعد حصولها على الإقامة الدائمة. آثرت "مينا" أن تخبرها في وقت لاحق بعد إتمام الخطبة وقراءة الفاتحة.

كان وقت ظهيرة، وقُبيل انتهاء الدوام في الجامعة بفترة قصيرة، أتى "عادل" مصفراً شاحباً، مزرراً قميصه باتجاه معاكس جاعلاً الزر الأخير سائباً، والياقة مجعدة، يطلب لقاء "مينا" بشكل طارئ وسريع بعد اختفائه يومين متتاليين، أشعلت أتون لهفتها عليه. حملت حقيبتها، وخرجت معهُ في ساحات الجامعة .

- علمني عليك، حيرتك رعشات ايدين، إشفيك ئيه وين هالغيبة؟!
- مو كاعد أتغشمر معك "مينا"، تعالي أكو مشكلة.

انتبذا - بعدها - زاوية فيها مصطبة بعيدة عن الطلاب، كان يتكلم وشعر لحيته غير الحليقه مفضضاً بقطرات عزق، تلمع، نبضه طبل، يرخ صداه في الاتجاهات كلها، أثار فزعها.

- خير، "عادل"، صار مكروه على أحد؟
- المكروه، يا فنيتي، له عدة احتمالات وأوجه، وبالنسبة لي، لا مكروه غير إكراهي على تركك.
- يا ساتر! الله يبعد عنا كل شر ليش!
- لا أعلم كيف حشرت المصادفة أنفها في مستقبلنا، فجأة اكتشفت أبي يُسوّر كل عائلتك بسياج أحمر مُعلناً عدم التقرّب والاقتراب. وكل ذلك بسبب زوج عمتك الذي هو من وجهاء مدينة الديوانية، وله شأنه وباعه في مركز المحافظة.
- إذا كنت تعني الحزب، فهو ينتمي للحزب الحاكم حاله حال الآخرين، ويمكن إنتو - أيضاً - تنتمون.

- أبي لا يفهم هذا، المسألة أكبر "مينا". هناك شباب فُقدوا بعد أحداث ١٩٩١، وزوج عفتك تحوم حوله الشكوك والاتهامات بتوزطه في مجهولية مصيرهم، هذا بلد يحترق أخضره بيابسه. برغم كل شيء، فهذا سبب ثانوي للمشكلة، السبب الرئيس أنهما تشاتما في مركز المحافظة بنعوت بغيضة. تعلمين أننا تركنا الكويت مرغمين، كنا في زيارة إلى أقاربنا في الديوانية صيف ١٩٩٠، وحدث الغزو، واتُهمنا بالتواطؤ مع الحكومة العراقية، صودرت أموالنا، ولم يُسمح لنا بالعودة. لحسن الحظ أن لوالدتي رصيداً مالياً كبيراً، كانت قد أودعته في بنك أجنبي. الفضحك الفحزن أن ابن خالتي كان أسيراً كويتياً عند القوات العراقية، وابن عفي أسره الأميركان اشتباهاً بتوزطه مع نظام صدام! لا ناقة لنا ولا جفل في كل الأحداث، ٩٠٪ من الشرطة والجيش في الكويت كانوا من البدون. حتى شهداءنا لم تُخصص لهم حقوق الشهيد على أرض الكويت التي وُلدوا، وترعرعوا فيها، بعد ذلك، يأتي زوج عفتك يمطّ شفته ساخراً، ويتقيأ على جراحنا! يقول "صاحب العلي" زوج عفتك المصون: أنتو البدون شجابكم علينا؟ تخيلي، ولا تستغربي أبداً، حتى الحارس الكريه الجثيث في المكتبة يطلع يعرف زوج عفتك، وينقل أخبار الحارس المعتوه عرفت أنه يضع - أيضاً - أجهزة تسجيل تحت طاولات القراءة، ولاسيما في وقت تجفع الطلاب، بالإضافة إلى نقل إحداثيات التحزك العفوي شفهياً وتحريرياً لفن يهفه الأمر!

ما انفك صراخ أبي في وجهي عندما كررتُ محاولاتي لإقناعه أن لا دخل لعائلتكم بزوج عفتك، فهو غريب، وبدأ يذكّرني مجدداً بأن الشخص الذي كان يحاول إذلاله كل مرة يذهب فيها إلى مركز المحافظة، يتسفر أمامه شابكاً

يديه حول كرشه الكبير، مخبراً إياه: "تعال يوم آخر، لم ننتهِ من معاملتك"، كان زوج عفتك للأسف. أعرف ستقولين لا تزز وازرة وزر أخرى، وأنا أقول لك هذا ديدن أهلنا، فماذا نفعل؟! هل أعقُ أبي، وأخسر رضاه؟ من يبارك زواجي وأولادي غيره؟ كيف أذهب لأهلك من دون أهل؟ هل تقبلون ذلك؟

طوال حديثه كانت "مينا" تأخذ نفساً عميقاً، رافعة حاجبيها، ودموعها تتطافر إلى كل صوب، وقد حبست صراخها في وجهه.

- ماذا تقول؟! ما قصدك؟!

لحظات قاسية عاتية، كان يريد أن يضفها بقوة، لكنه قبض على يديه، وأنزلهما ضارباً بهما على ساقه.

- تعرفين! أنا الابن الوحيد لأبي، لا يمكنني عقه وضرب كلامه عرض الحائط، لا أحتمل غضبه علي، قد يموت. ولا أستطيع إيقافك معي وسط طريق، لا يفضي إلى نهاية.

قدمت "مينا" استقالتها في اليوم التالي، من دون تقديم شروح وافية ومبررات لأحد، أخبرت عفتها بأنها لا تطيق المكوث في الديوانية أكثر، ويجب أن تعود للكرادة وأهلها في بغداد.

رحلت عن عفتها تاركة في قلبها غصة بعد أن ودعتها، وهي ترش خلف سيارة زوجها الذي أوصلها أبريق ماء أملاً في عودة سالمة إليها. *

كانت "مينا" تحتاج لشهور عديدة لاستيعاب ما لا طاقة لعقلها على استيعابه، ولا مهجة لقلبها على تحمله، فترة تعيد فيها برمجة حياتها، ونقل أطراف معادلتها؛ حيث لا تصفر الأحلام على وفق معطيات خيبتها الراهنة. قطعت اتصالها بـ"عادل" وكل من عرفتهم بالديوانية، شغلت وقتها مع "حلا" وطفلها ذي الشهور الخمس. تحاول أن تغمض عينيها كثيراً، كلما مرت أشرطة الذكريات أمام عينيها بين الماضي القريب والبعيد بصور غبشة تارة، وأخرى فاقع لونها، تجعلها في دوار مزدة دوماً: المصائب لازم تقويك، يا "مينا".

لكنها لم تكن لتتمالك نفسها عندما يجن الليل، وتخرج أشباح "عادل"؛ لتتسور وسادتها. تبصق كثيراً؛ لتتخلص من طعم قبلته الأثيرية العالقة بين لسانها وأسنانها، وللأثير نكهة الغصة الأبدية.

اتصلت "رشا" بعد فترة طويلة، وبشكل مفاجئ من الديوانية، وكان واضحاً أنها أخذت زفم "مينا" من عفتها بعد إلحاح كبير. أطلقت "مينا" فجأة ضحكة، فيها مزيج السخرية والأسى بعد أن أخبرتها زميلتها القديمة "البنت إلّي تعينت بنفس مرتبتك الوظيفية ومكانك خطبها لـ"عادل العنزي" إلّي كان لازق عدنا بالمكتبة ، ما عرفتي، يا مئونة تاخذيه"!

"مينا" استمرت بالضحك مقهقة، وقد تراءى أمامها شبح "عادل" مجدداً، وهو يمسح عن ذقنها اللعاب المنهدر بثنية قميصه، ويلفها بعباءة سوداء؛ حيث تفقد وعيها الكريه لما يحصل. ما لبثت طويلاً حتى غيرت نبرة صوتها بعد أن أرغت، وأزبدت عاصفة الخبر في روحها. أخبرت "رشا" بالمقابل، وقبل إنهاء المكالمة أنها سعيدة حداً الآن، وهي - الآن - مخطوبة.

وعلى وشك الزواج من قريبها.

كانت "مينا" متأكدة أن "رشا" لم تعرف تفاصيل ما حصل بينها وبين "عادل"، ولم تكن قاصدة إيلامها، بل كانت تتكلم على سجيتها البسيطة، متقززة متزلفة بأشكال الأحاديث وأنمقها لمعاودة صداقتها، ولو عن بُعد. ولم تعرف تلك المخلوقة أنها حرقت روح "مينا" المتسربة كغاز بلا لون من قنينة الماضي.

لم تشأ صفحات "مينا" الأليمة أن تُطوى من دون أن تُرجعها يد الذكرى النابشة في جيوب القلب المخفية. لم تشأ - أبداً - أن تتركها لهروب، كان - وما يزال - أنجع حلولها.

قليلاً ما كانت تمر "أم علاء" زوج "هديل" لزيارة عائلة "أبو سامر"، لكن؛ هذه المرة غايتها عريس لـ"مينا". هذا ما قالته لـ"حلا" في زيارتها الصباحية المبكرة لهم. دلفت "مينا" إلى غرفتها، ولم تبرحها للسلام؛ لأنها لا تحب أهل "علاء"، ولا سيرتهم:

- الولد بـ"هولندا" وأهله يسكنون منطقة الشعب، خوش ناس. ويگولون أمريكا ناوية نية مو زينة عالعراق، خلّي تطلع البنية، وتأمنون عليها.
- الكلام مو عندي خالة، لازم البنية وسامر وعفو أبو سامر يقتنعون.
- خذوا عنوانه، واسألوا عليه هناك، عنده سوبر ماركت وبيت، صايم ومصلّي، وما عنده زايدة ناقصة، شتريدون بعد؟

اغسوسق المساء خارج البيت، وتعالت النداءات لمتول "مينا" أمام السيد الوالد الذي كان متوجساً من الأمر، وترك لها الإدلاء بقرار أخير. وافقت "مينا" بلا تردد بعد أن تبادلت الصور مع "محمد"، وقالت: "حان الوقت لتبديد كوابيس، علقت بأذيال كل الليالي في حياتي".

تقفى أهلها عن الشاب وخلفيته؛ حيث ترجع أصوله إلى البصرة، وهو الولد الوحيد بعد ثلاث أخوات. لم تظهر على صفحته أية شائبة قد تعكر قسمة ابنتهم ونصيبها. كل شيء حدث بسرعة، معاملة السفر، الوداع الذي كانت تتكزر لقطاته في مخيلتها، عندما سلّمها والدها صندوق الإكسسوار الوردي الذي رغبت توريته ذات فجيعة في قبر والدتها، قائلاً لها: "أمك تحب تشوفك سعيدة، يا بنتي، تزيني، وافرحي"، دفنت رأسها في صدره، تجهش، وتبكي بحرقة، وهي تشعر أن روحها تُنازع على رصيف

الرحيل إلى فضاء غريب، أمسى مرامها للنسيان!

انتظرت مع "سامر" بضعة أسابيع في عمان حتى استكمال إجراءات السفر، ثم طارت مباشرة إلى أمستردام.

الفصل الثالث

(تمغثني حمى رؤيتها واستحالة نوالها ، أدعك ذقني حتى أكاد أخلعه، فألصقه بعنقي، وأنا أكتب ، صدقوني، لم أفعل شيئاً، وأنا أسوّد صفحاتي غير أني أدخلتُ إبرة وخيطاً؛ لأقطب معدة الذكرى، حجمت نزقها وشراهتها؛ كي لا تبدن روحي، فأصاب بعسر النسيان).

توقّعت أن يستقبلها "محمد" في مطار أمستردام، بلهفة عارمة، لرؤيه "بطيخة" حظه قبل أن يتلقفها بين أحضانه. انتظرت أن يقبلها من جبهتها بود قائلاً: نورتي هولندا، عزيزتي. يقال إن قبلة الجبين تهز الوجدان، وتوقظ الكائنات السابتة في خلايا المشاعر، كما شرحت لها "حلا"، وهي تهيئها نفسياً لمباغتة الموقف. لكنه مذ لمصافحتها كفاً منفلة، بدم متحفز، قائلاً: "نزلت أهلاً في أمستردام، مينا". نظرت إليه بشوق، يتخفى خلف ستائر من وجل، تملكها كلّياً. هو رجل، صورته تتحوّل إلى كائن بشحم ولحم ومشاعر. عليها أن تُطوع كيانها المتشنج تلك اللحظة على تقبله والتآلف معه، عليها أن تكون الزوجة التي تطمح أن تكونها كل النساء، ويفخر بعشرتها كل الرجال.

في طريق ذهابهما إلى عش الزوجية حاول ممازحتها:

- شفتك مكتنزة، وخدك متوزد، هل وصل البوتوكس للعراق؟

شعرت بسرور، ضحكت بخجل، وأدارت وجهها صوب الطريق؛ لتنتعش برائحة الورود والتوليب عبر نافذة السيارة. تنقل نظراتها من بناية إلى أخرى، وتتمعن في مدينة، تعيش على ضفاف القنوات المائية. تملأ رئتيها بعبقها، وتهرب من غزل محتفل.

دخلت البيت بقدمها اليمنى، وتركت اليسرى على عتبة التوجس بعد أن لاكتها أضراس الحزن في العراق، مفعمة بمزيج مشاعر قلقة، لم تفهمها في خضم الموقف!

بدأ "محمد" يتلوى من التعب خلف الأريكة المدوشمة بالأبيض، فارداً ذراعيه خلف ظهرها، ورافعاً قدميه فوق الطاولة.

كان قد أحضر كباباً عراقياً من مطعم في وسط

أمستردام، لم تكن معدتها مستعدة لهضم أي طعام قبل أن تكون مائدة الروح عامرة بالطمأنينة. تجولا بعد مدة في البيت المتواضع. قال: هذا المطبخ، ينتظر الدولمة وكبة الحامض شلغم، أحب الأكل العراقي إني وما أعرف أحضر غير الأكل السريع.

- تتدلّل.
- وهذه غرفة النوم!
- ينقصها فوانيس صغيرة، وأريد تغيير لون الستائر إلى الوردي.
- إن شاء الله يجرالك.

يستطرد قائلاً: "هذه الشرفة أدخن فيها الأركيلة أحياناً، وأشرب قهوة الصباح، لها إطلالة على نهر جميل".

لمحت "مينا" على الطاولة الواطئة قرب سرير النوم مجلات أزياء هولندية خليعة الصور، فسر "محمد" وجودها ببساطة، بكونها إصدارات قديمة، كسدت في السوبر ماركت، فأحضرها؛ كي تتسلّى بها، وتبدّد الضجر المحتمل وقت خروجه. لم تحقق أكثر في أمر، وجدته سخيفاً جداً في يوم زفافهما إلى حياة جديدة. أدركت أن الطبائع ينجلي لونها بمرور الوقت، ولم ترصد مؤشرات سلبية في شخصيته، برغم صمته الطويل، وتفاعله الضئيل والكسول معها. كانت تفكر وقتها بهنائها مع شريك الحياة، بأطفال يولدون، وفي فمهم ملعقة خب، تلفهم بقماط أبيض مطفم بخرزة زرقاء. ترقيهم من شر الحزن وإفك الخسارات التي نزّت من شبابها.

في الأسبوع الأول، كانت تتفقد المنزل كخبيرة بصمات، تبحث عن أثر ماضٍ، يدلها على هوية الشخص الذي قررت مشاركته الحياة من دون سابق معرفة. لا رائحة لنساء وطأن عتبة البيت قبلها، لا بقايا أحمر شفاه، أو ملامح أنثوية، فالجدران توزعت عليها براويز لصور الأهل والأجداد وآية الكرسي التي تتوسط المدخل إلى الصالون، تبعث سلاماً روحياً، كما في أغلب البيوت

العراقية.

الإضاءة خافتة، قد تكون ترشيداً لاستهلاك الطاقة الباهظة التكاليف، أو ترشيداً لاستهلاك النظر.

تبدأ بترتيب البيت، وتُعيد تأهيل المطبخ حسب ذوقها. تضيف لمساتها الأنثوية على كل ركن وكل نافذة، افتقرت قبلها لشتلات زهور وسنادين، تنعش النظر. كانت تتساءل في خلدها، وبصورة لا إرادية، هل يُنسى وجه الحبيب بالتقادم؟! هل تمحو مكنسة القسمة والنصيب آثار أقدام، سبرت في بور الذكرى؟

لم تكن متأكدة، ولم ترغب بالمثول بين يدي هواجسها. كل ما تأكدت منه هو أنها تركت "عادل" ومدينته التي ذبحتها يوماً، عالقة بين أصابعه، يُعذّب بها نفسه، كلّما تذكّر مشهد الفُراق، وسدّ مكانها في قلبه مع أخرى بذلك الأسلوب المستفز، وتلك السرعة.

البداية - هنا - في بيتها الجميل، ولا مجال لرهانات خاسرة على طاولة الغربة.

في الشهور الأولى مرّت لحظاتٌ عجاف، كانت تُهوِّنها ببسمات مُترهلة على شفتيها. تتذكّر فيلم "همّام في أمستردام" لـ"محمد هنيدي"، وكم أضحكها هذا الفيلم وقتها، وطالما تخيلت نفسها تتخبّط في أمستردام، ولم تعلم أنّ لنهر مخيلتها مصباً حقيقياً في حاضرة الواقع. تتحرّج - أحياناً - من جهلها بالقوانين ونظام البلد. ترافق زوجها إلى مكان عمله؛ لتحتك بالمحيط الجديد، ولو بصورة بدائية مع حذر شديد، وهي تتذكّر مثلَ والدها "يا غريب، كون أديب". فكل شيء سيكون مختلفاً وجديداً على أي شخص، يهاجر من العراق.

السنة الأولى

ولدت "مينا" بعد ٩ أشهر "آدم"، وفي جوّ من الإحباط، راحت تذرع باحة حيرتها رواحاً ومجيئاً مُعلقة نفور محمد على شماعة الحمل والإنجاب، ارتباكها مع طفلها الأول ومشاكل رضاعته في الشهور الأولى.. صوت في داخلها يضج ويزعق بأن هناك خللاً ما بعيداً عن كل توقع، عطب ما في شيء تجهله، أو اللا شيء الذي يفوق إدراكها، وعلى أساسه، فضّل النوم طوال تلك المدة على أريكة الصالون. لم يكن ثمة خلل أو تشوه في شكلها؛ لأنها نحفت كثيراً بعد الشهور الست الأولى من الرضاعة، واستعادت هيافة قوامها وخصرها النحيل، ولا في رائحة جسدها الذي يفوح بعطر القداح، وحرصها على المضمضة، واستعمال غسول الفم بطعم الفراولة. تلقي اللوم - أحياناً - في خشونة طبعه على نزعة العنصرية الوليدة والمتنامية بسرعة في البلد، وتأثيرها النفسي على زوجها، ولاسيما أن "محمداً" مُحمّل بذنوب تحميل الدين ذريعة لتفجير برجي التجارة في الولايات المتحدة سنة ٢٠٠١، ينجهم في وجهه كل من عرف اسمه. وكأنّهم أمسكوا برؤيته رأس الخيط الملتف حول خلية الإرهاب. لم تشفع له الجنسية الهولندية، أو تُبرّئه من شبهة الاسم. تعرّضه المتكرر لمواقف صادمة لها أن تزعزع من اتزان أيّ نفس بشرية، فما بال إنسان مثله، دبغت الحرب جلده، وجعلت قلبه بهشاشة كسرة خبز. وضعوه قاب الموت والحياة، ووضعها قاب الزوجة والوصيفة. لكنه شديد الشكيمة، ولا يُظهر انكساره أمامها. أبقى على مسافة كبرياء، تفصله جيداً عن فكرة الشكوى، أو الارتماء في أحضانها.

خلف ذلك كله، لديها شعور زوجة، لا مكان لها غير تجميل شكل، وتكملة عدّة حياة زوج مجوّف القلب. أيان يحتويها، وهي تستحث بطارية قلبها على شحنات الصبر، وتتزين في موعد قدومه مساءً فتنتشيه بأغنية "ألف ليلة وليلة" التي تصدح في أنحاء حجرتها. تقول "لعلّني ألتمس ليلة، توازيني معه على سكة الحياة، من دون أن تشبكني بقاطرة ضياع.. لعلّني".

تضع "آدم" في سريره؛ لينام مبكراً، وتحتفي باستقباله عندما يدخل:

- الله يساعدك، عمري.
- متعب جداً، "مينا"، أريد أتعشى.. ممكن تغلقين صوت الأغاني؟ دايخ!
- حاضر!

يبحث عن جهاز تحكم قنوات التلفاز، ويتابع آخر أخبار الشرق المشتعل، والعراق على أهبة حرب، لا تُعرف عواقبها. يصفق يداً بيد مرذداً "البلد راح.. خلص".

يتأفأف، ثم يغير القناة. لم يَجزب - بتاتاً - الضغط على أزرار لهفته؛ ليتفجر شوقاً، أو يلتفت لعيني شريكته المحتقنة بالدموع. تراقبه، وهو يتمطى متثائباً ومتململاً، ولا تنبس بكلمة.

هي التي تزوجت؛ لتنسى، ولا يراودها شبح الأمس المستهتر بأحلامها. يتعالى صراخها المكتوم من أعماقها: "هل رشف أنوثتي حب اندثر؛ ليتركني اليوم صفيحة ناشفة، لا ملمس لها في أحضان زوج، كأنه روبوت آلي؟! أم ماذا؟ لا، لا، الحق حق. إي آني بطرانة، الدنيا مقلوبة في العراق، هو قلق على أهله، وآني أدوّر مشاعر".

كانت قد طرحت عنها كبريائها قليلاً بعد أن فقدت رشد الحقيقة، أتراها هربت إلى قفير السعادة؟! أم إلى قنّ حزن جديد؟! حيث يمتض بعوض الحظ مخ بيضتها المدجنة بالأمل؛ حيث ينازع يقينها في رنتها المسرطنة بالشك، ويتركها تحتضر تحت قوس الاستفهام.

في بداية زواجهما، كانت تبزر له أكثر مما يستحق، ولم تشعر بحق لومه أو اتهامه بتقصير، هو - فعلاً - يقترفه بحقها، فالبوح بالحب أمر لا إرادي، وليس بالهين. كيف يرشد الحواس إلى مخبئه، أو يعلن اكتشاف مشاعر، لا يوجد لها أدنى أثر على أرضه؟ الحب ليس كبسة زر، تشعل جذوة، توقدها، وتطفئها بقرار، منبعه العقل، ومصبه علاقة مسرحية، تنتهي بهروب كياننا المتفزج على الجسد الكذوب.

قال لها في مرة يتيمة عابرة: "حبيبي"، رافعاً التاء. أتراه استأصل تاء التملك؛ لأنه لا يملك قلبها؟! أم ليجردها من كيانها الذي يحمل له مودة ورحمة؟! لعلها كانت كلمة عابرة على جسور الروتين اليومي.

في الأحوال كلها، هي كلمة لا ترجع صداها، لا موجات تتردد منها في خواء الشعور.

تذكرت أنه قالها بعد تلميحات منها، فكثيراً ما حاولت استدراجه لاحضانها، أن تشعره بأنها أنثاه. ما كان ينوب "مينا" منه هو خيبات متكررة، ومشاعر راكدة، لم تنم على سطحها غير طحالب الجفاء والحسرة.

عاودها النوم منذ الليلة الأولى في ظلمة حالكة، تشفر فيها، وكأن جسدها أجزاء لعبة "ليكو" تبعثرت، وتجفعت من دون "كاتالوك"؛ لتكون لعبة يلجها فغمض العينين، حابساً أنفاسه، يصوب الهدف بحدسه. أتراها طقوس ساحر، يدس أرنبة أنفه في أذن إبريق الشاي فتحبل زوجته بأرانب؟ كانت متأكدة بأنه ضرير الحواس معها، لا يراها، ولا يعرف حجم تضاريسها، أو طقس أنوثتها، ثم يخلّف لها شعوراً سقيماً وقاسياً، وهو يتمئن بمكرمة النوم معها.

ما انفكت محاولاتها مع نفسها لدرء الصراع معه، وتحويل دفة اللوم لأوهامها المتجلية، وروحها الحالمة؛ كي لا تعترف بهزيمة أخرى.

كانت تضحك أمام المرآة، وهي عاجزة عن تظبيط سحاب فستانها، أو غلق عقدها الصغير حول رقبتها، كأنه كان يخشى ملامسة تفاصيلها.

قالت: "ايبه، لو كنتْ في العراق، كنتْ استعنت بزوجة أخي على أقل تقدير".

تحاول تدوين ما يلمّ بقلبها من فجائع، لا يمكنها أن تصرّح بها، تستطرد في همهمتها أمام المرآه قائلة: "لكن؛ وين أهلي الآن، والعراق؟ كل شي يتغير للأسوأ، والأيام اللي كنا نشوفها مو زينة، هسه نتمنى ترجع، ونرجع ملمومين على الحلوة والفرة".

تخرج صورة أمها التي طوتها في جيب حقيبتها، وتقول: "هل سامحتني أمي؟ أمي، لقد توقّفت عن أكل التراب؛ لأن تراب الغربة مالح.. والماء مجّ، لكني ما أزال أتابع حركة القمر، وأرقب مرور النيازك، أوصليني بكوكبك الدافئ؛ حيث لا عودة لي من دونك! هل أتاكِ نبأ آخر المشاهد وجعاً في بلدنا؟ جنبتكِ المنيّة رؤية البلد بين فكّي فحتل، يلوكه شمالاً، جنوباً، شرقاً، وغرباً.. ويمطي الشعب على مقاسات الأطماع والمصالح.. لم تكوني لتتحملي فجيعة أخرى كهذه! انتهت الحرب، وبدأ الاحتلال، يبكي والدي الشباب إلّي راحت، البنايات التي اسشبيحت، والمتحف الذي بين يوم وليلة نُهبت آثاره على مرأى ومسمع الأمريكان! مَن يُبالي لمقتنيات وكنوز عمرها ٧٠٠٠ سنة، وفي البلد هناك مَن يسطو على حبل غسيل لجار بائس؛ ليسرق ما تيسّر من ملابسه الرثّة؟! وآخر يفوقه حظاً بانتظار خمسين دولاراً يتصدّق عليه بها أحد أقربائه في أوربا قبل العيد.. بلد أنهكه، ونفض مقذراته الحاكم الوسخ، ثم تسلّمه الآن قطّاع طرق، وناس شبعت سحتاً وحراماً.

أمي.. اختفى الرئيس الذي كنتُ أتصوّره في طفولتي منافساً للربّ على أرض العراق، لم نعد ننتقي كلامنا أمام عموم الناس اليوم كما في السابق؛ كي لا تختفي عوائلنا ووراء الشمس! ذهب فزّاعة طفولتي، وتزك لنا إرثاً من وحوش، احتفظ بهم في أزقّة اللصوص والمشردين لأيام، لم تكُن في حسباننا، سامحيني، تركت كل شيء ورائي؛ لأنجو بـ"مينا" وأقراطها التي حملتها في الصندوق الوردي نفسه الذي أهديتها إياه. سامحيني، أمي، لم يكن ذنبي أني أخذتُ منك جينات الهرب وعدم الصبر. نامي بسلام في موطن الأرواح النقية، ولا تفارقي حقيبتي؛ حيث جزتني تقادير الرحيل".

***

تنهض "مينا" في أول الليل، وآخره؛ لتتفقّد "آدم" المتململ أحياناً، في أثناء نومه، تعاود النوم، وتصحو مجدداً. تُخرج قدميها من السرير، تجلس

على حافته، وتنشج، بينما ينام محمد هامداً على وسادته العالية محدثاً شخيراً وصفيراً لا يتوقفان. تستعيد شريط ماضيها متذكرة شقاوة "عادل" وقبلاته الأثيرية، التي كان يصرح بكل جرأة أنها غير بريئة، وهي تصده. تتمتم بين النوم واليقظة: "نعم، عادل، كنا نحتاج أن نضرخ بأننا بشر، وأن العروق التي تسري في أجسادنا تحمل عناوين مختلفة للحب والشهوة، الكره والغيرة، أن نكون نحن بلا تجفل مصطنع، بلا بهتان، ما يزال صوتك في مسمعي، وأنت تقول: "إن الأنوثة تنحت عن ألقابها ومفردتها أمام رقتك.. أتجفر لهفة، وأنا أراقب حبات العنب الغافية تحت قميصك، تجذبني، أتخيلها طرية وشهية، متى يحين قطافها، ونتزوج"؟!".

تحاول استعادة وعيها، تسور رقبتها بكفيها، وهي تزعق بصوت مخنوق ومكتوم: "حقير، حقير وجبان عادل..كلهم حقراااااء"!

تخلّل أصابعها في شعرها، ثم تجره إلى الأسفل بعنف، وتتذكر كلمات والدتها بأن تلعن الشيطان الرجيم، وتقرأ المعوذتين قبل النوم، تلك الوسيلة الأقرب لوأد مشاعرها، قبل أن تأخذها رمال التمزد المتحركة إلى قاع الخرمات!

الحيرة أكلتها، ولا تدري أستتعود على مواجهة صدع زواجها، ورأبه بالصبر؟! أم تتعايش في فطر اللا مبالاة؟! و"هي عيشة والسلام". البيت يؤول للسقوط في هاوية اللا أسرة، و"محمد" يفشّش في منزله الروحي، نائياً بخصوصيته؛ حيث حيواته الأخرى التي لا تعلم عنها شيئاً.

شغفت "مينا" بتعلّم اللغة، ومتابعة برامج الأطفال مع "آدم" لسلاسة ووضوح اللغة في أفلام الكارتون. تتنقل - أحياناً - بين الهولندية والقنوات العربية التي بدأت بنقل أحداث الانفلات الأمني بعد الاحتلال الأمريكي، وردود فعل الناس إبان سقوط الحكومة الدكتاتورية. تتسع عيناها، وهي تبحلق في مشاهد ما بعد الدكتاتور.

هناك مَن يحمل مراوح، اقتلعها من سقوف دائرة حكومية. أطفال يحملون صحوناً ملوّنة من بيوت المسؤولين، ينبعون ذويهم المنشغلين بفك صنابير مياه مذهبة، اعتقدوا أنها ذهب خالص. بعضهم قلع أبواب داخل القصر، وبدأ يحفر في خشبها، لعلّه يجد ضالّته من السبائك المدفونة حسب ما تناقلته الإشاعات. ولم يجد أحدهم أسلحة الدمار التي تشدقت أمريكا بوجودها، وانتهكوا بذريعتها حرمة جامعات بغداد مرات عديدة، مفتشين في جرارات مختبر الكيمياء، وفي الأجهزة التي انتهى وقت صلاحيتها، وكان من غير الممكن استيراد قطع غيار لها، أو تبديلها بسبب العقوبات المفروضة. يبحثون في أجهزة الحاسوب والبرامج عن شفرات، قد تكون سرية، تقودهم إلى مبتغاهم. وحدهم الطلاب وأساتذتهم مَن شعروا بطعم المهانة بدخولهم إلى عقر الجامعة بتلك السيارة البيضاء المنقوش على بابها (UN)، يخلّفون وراءهم ضجيجاً وحالة من التوتر. أما القائد؛ فقد كان قابعاً في بيته، أو متجولاً بين قصوره المتعددة، يستعلي تارة، ويوطي رأسه أخرى؛ كي تمضي أميال الوقت كسهام في أعناقنا، تخترق غدة الصبر على بلواه.

في إحدى الصباحات - وبعد ليلة وحدة حالكة تحت مخمل شتوي، تملكها مفعول قرصين من الفاليوم، لطرد شبح الأرق الذي كان يخاتلها بين طيات الستائر الخشنة والشفافة - جلست "مينا" تقلّم سيقان الشتلات، وترتب السنادين التي أهملتها طويلاً، في أثناء انشغالها في استكشاف خلايا العناكب في سقف وزوايا عشها الزوجي. تفتش عن الخيوط التي سخبتها من نسيج سعادتها، وهندس القدر شكلها حول غار الروح؛ كي لا يهتك سر اختبائها من عيون المستقبل. تحتار: أتنظفها؟ أم تتركها تضفي جواً يشي بأن المنزل هجره سكانه الآدميون؟ على كل حال، لا مكنسة غير تلك التي تطير عليها الساحرات، يمكنها أن تُرونق أمكنة، ضمت للهاربين والعابرين سور المعقل الشرعي في الحياة.

تقول: "ماذا أريد؟ هل أبدلني امرأة أخرى، لا أتوازى معها على سكة قطار، توصلنا للمحطة نفسها، والمصير نفسه؟ ما الحلّ؟ كيف أجد امرأة أخرى، تتلبسني روحها، تمنك أن تواجه العواصف، ولا تثني مرفقيها على وجهها المهزوم. تفتح عينيها كاملة أمام كسوف الحظ، وخسوف البشر. تصلّي للموت والحياة، ولا توجلها الخطوب؟ أم أقتنع بنصيبي، وما أفتته الحياة لي من مأوى ووطن بديل، يقيني شر الحروب المتوالية؟ ماذا أريد، وزعاف الآمال يسري في خرائب أيامي، يقض مهجع اللا مبالاة التي أصطنعها؛ كي أهرب مكرراً، وأعاود القفز بين الصباحات، مرتدية حذاء التغافل والقناعة الضيق جداً على مقاس ذاتي المدلّلة؟

أغرقت السنادين بالماء، فتحت الشبابيك، سحبت نفساً عميقاً، عقصت شعرها، ثم ارتمت على الأريكة، وقالت: "كفاك، يا "مينا" اجترار الحزن، عيشي يومك، وربي ابنك".

نعم، تماهت كثيراً، كان عليها مراجعة طبيبتها لزيادة جرعة المهدئ الذي وصفته لها بعد انهيار عصبي، أوصلها لضيق في التنفس، ودوار. وكان عليها عدم الاتصال بـ"هديل" التي فاجأتها بما قالته لها قارئة فنجان أردنية، ذاع صيتها، وقصدها وجهاء وأمراء من مختلف المدن. تعنت هديل للقائها في إمارة عجمان بعد أن شربت قهوة، نفخت عليها اسم "مينا"؛ كي تصدق نية الطالع. أخبرتها: "لأختك زوج أقراط، تفرقا، ولن يلتقيا، أضاعت واحداً في بلدها، والآخر بعيداً عنها، أراها تنقيا تراباً على أرض غريبة"!

كانت خمسينية، سمراء، تشق الرمل بأظافرها، وتلقي فيه حبات الودع أو حبات وردة عباد الشمس. لها وتر صوت يرن في أذن زائريها، وكأنها تعزف موشحات روحية.

قالت "مينا" لنفسها مذهولة، وهي تُرجع ظهرها إلى الخلف مستندة على كرسي خشبي في مطبخها: "كيف لها أن تحدس هذا من هيكل بُنٍّ ذائب في قعر فنجان، بحكاية أقراطي؟ كذب المنجمون، ولو صدقوا، لكن؛ هل يعقل؟ كيف تجوس تلك العزافة فلكي ومرتع أسراري"؟ تذكرت في الوقت نفسه ما قالته عزافة الديوانية: (ستسكنين في قصر من دون كهرباء).. نعم، أنا أسكن في جنة معتمة!

تعزقت أصابعها القابضة بقوة على جهاز المحمول ، أنهت المكالمة مع أختها، وأخبرتها "اني مو ناقصة خبال، إلي بيه مكفيني "هديل"، ديري بالج على بيتج بالأول، اختج عرفت زين شنو حظها من الدنيا، رح أحضر فاصوليا وتمن أحسن"!

تعوّدت "هديل" في تلك المدة السمجة الاتصال بـ"مينا" عبر السكايبي لأوقات طويلة، تشكو قلقها، بؤسها، مع زوج لا تسلم من تحرشاته حتى الخادمة الفلبينية. تخبرها "تحاشى "علاء" أن يفتضح أمامي في بادئ الأمر، والآن وضعني أمام الأمر الواقع، القانون الإماراتي بجانبه؛ لأنه ولي أمري، ولا أستطيع إخبار والدنا، إلي بيهم مكفيهم، حرب طائفية وأمريكا عاثت خراباً، أين المفر مع ثلاث بنات؟! تتذكرين، يا "متونة"؟ "علاء"

الطفل الخجول عندما كانت والدته ترسله ليأخذ "وريقات الآس" من حديقتنا التي سورها أبي بهذه النبتة، كان يشذني حتى كبرنا بنظرات إعجاب، يختلسها لاهثاً، أمائر الحب والصدق أضفت وقتها على ملامحه وقاراً ووسامة، أتصدقين؟ لقد أصبح شخصاً آخر.. أناني، وبلا مبادئ"!

كانت "مينا" في الجهة الأخرى من العالم، تشعر بسخونة جسمها، وتضع راحة كفها على جبهتها، تتمضض صامتة، بما خبأته عنها في بغداد عن تحزشاته المقززة. بزرت تخاذلها مع نفسها بالخوف على أختها من الخراب، من فضيحة، تنكب حياتها، وقد تدفعها للانتحار.

تحاول "مينا" تغيير صوتها، وإبداء استغرابها من حديث "هديل"، ثم غلق باب الإطالة بموضوع "علاء" قائلة: "كل واحد ومصيبته شكل، يا "هديل"، والمصيبة عندي أن "محمد" لا يرى المصيبة، ويرى جحودي، المصيبة لا يعرفها غير الله وأنت وطبيبتي، الناس في العراق يحسدوننا على نعمة الغربة بعيداً عن المفخخات، ونحن هنا نأكل فضلات أحلامنا، ونتجشأ. تهبنا الحياة غلافها اللامع، وتجويفها المظلم، يقول لي زوجي: نحن مثال العائلة السعيدة، ألا تحمدي الله على نعمتنا"؟!

ما تزال تلتف مع باب العمر الدوار؛ لتخرج من الماضي، وتعود إليه بعتلة ضعيفة، تُبقيها رهينة مبنى، يؤول للسقوط، كلّما شهقت بحسرة، متابعة بحدسها الفلكي الرسوم البيانية لحركة القدر في فضائها. تُخطئ التقادير، تُصيب التوقع، وتشكك كثيراً بمعطيات الحياة التي جعلتها مجدداً مع برج الحمل، ولكن؛ بإصدار آخر متمثل بـ"محمد" الذي يعد الحديث عن الأبراج إفكاً، وعملاً شيطانياً. تذكرت مجدداً تصريح المنجم في الراديو عندما كانت عند عفتها، بأن رجل الحمل متقوقع على نفسه، ولا يمكن اختراقه بسهولة. تأفأفت، ولم تفتح لنفسها شقاً، تدخل منه، للمقارنة بين نقيضين من البرج نفسه.

كانت "مينا" قد تعلّمت اللغة الهولندية في مدرسة تعليم المبتدئين، بسرعة فلفتة. تحاول التماهي مع المجتمع المختلف، تتقبل ما كانت تتجلب سماعه بالأمس عن خزنة اعتناق الدين والمذهب، ولا سيما وقد غرس والدها في فكرها مبدأ أن الإيمان علاقة خاصة بين العبد والرب.

انضمت إلى نادي المغتربين العراقيين؛ لتتقرب من وجوه، أثارت حفيظتها بادئ الأمر. تعرّفت على "نادية"، أم لطفلين، متزوجة من سائق تكسي. قصيرة، شعرها أصهب ويغزو النمش وجهها المدور، كانت فُكاهية، ولا تملّ من الضحك، كأنها توراي فاجعة التشرّد بخمار الفرح المصطنع. لا تشبهها في أي شيء، وتشاركها تخبطها في المنفى؛ حيث يختلق المرء هناك ذرائع لقتل ضجره. تأخذ "آدم"؛ ليلعب مع أولادها بدل حبسه معها في المنزل. تتحدث "نادية" مع أولادها الهولندية أكثر من العربية، مما جعلهم ينفرون من لغتهم الأم، لصعوبة فَهم المفردات. لسان الأم هو الهدية الأولى من الطبيعة للطفل الذي يلقنه المجتمع لغات أخرى، تجعله يتحدث بها بطلاقة، بمرور الوقت، بحكم دراسته وعمله، هذا ما كانت "مينا" تحاول إفهامه لـ"نادية"، من دون جدوى.

ومع مرور الوقت بثقل كبير وممل، فتحت أمستردام أشداق غول فضولها، وفي جلسة استنطاق معها، قالت :"صرتُ أهيم في شوارعها وبين قنواتها المائية هرباً مني، ومن مساءٍ يرجع فيه "محمد" إلى عش الرخ؛ ليمارس روتين الأكل والنوم ومتابعة الأفلام الأجنبية بعد صعودي إلى غرفة النوم. لم أعُد أستهجن المتعانقين بلهفة بمرأى ومسمع الملأ. بل كنتُ أشعر بصدقهم وعفويتهم. وأبحث عن مكامن شغفهم بالحياة؛ حيث ينقصني ما يملكون.

كُنتُ أشمئز عندما تُهاتفني "نادية"؛ لتخبرني أن لساعة غرام ليلة أمس مع زوجها أجر تقاضته قبل أن يلمسها. أسألها: هل تكرهه؟ هل هو بخيل؟ أم لا؟ أستطيب فكرة العلاقة غير الشرعية، ويحلو لها تمثيل دور مومس؟!

أخبرتني بأنني حقاً "هيلة"، أو أدعي الهيل، وأنهما سنما الروتين بعد عشر سنوات زواج، ويفضلان أن ينظرا إلى بعضيهما كغريبين، أن يتحالفا مع شيطان الخيال، بالإضافة إلى أنها تعشق اليورو الذي يجزها إلى بذخ إضافي، وهي تتبضع من أسواق أمستردام!

كانت تبتسم، وتقول في سرها: "عيشي، وشوفي مينا"، فمأزق الصداقة المفروضة لم يخطر - أبداً - على ذهنها، ولم تجد مبرراً لنقدها. تلك امرأة تشعر بالسعادة مع زوجها كيفما كانت طريقة علاقتهما. ترى "مينا" في نادية امرأة ناجحة، وتفهم ماذا تريد من الحياة، مهما يكن من أمرها الذي تستغربه.

ترجع تسرح وتفكر مع نفسها "حقيقي ثولة اني، عدها حق". تشعرها "نادية" - دوماً - بأنها سطحية وتافهة في مجتمع صاخب، محب للحياة والكيف في مدينة جميلة، تنام بتلات الورود فيها على أكتاف النهيرات الصغيرة، وجلّ اهتمام ناسها هو الاعتناء بحدائقهم وشجيراتهم.

أمستردام ساحرة بطبيعتها، تتناقض مع الدين واللادين. الخزنة والنظام، عفة النهار ومجون الليل، تحتل الجالية العربية والمسلمة فيها نسبة كبيرة من السكان المتعددي الأعراق والجنسيات. جوامع ومساجد لكل المذاهب، ولن تكون "مينا" يوماً من رؤادها تحاشياً لقاء مجامع، دأبت في محاولات غسل العقول، بمسحوق ديني متطرف، كما أكد "محمد" الذي كان أول المنبهين لها بقوله: "نصوم ونصلّي في بيتنا أحسن ما نتوزط".

تعوّدت "مينا" شرب الشاي الفهيل في شرفتها الأثيرة، تُدوّن ما علق من ذاكرتها على جهاز اللابتوب الذي لا يُصلِح أخطاء. فوّضت لُغتها مع القدر. تحاول الاستسلام، تنفض الأتربة عن حواسها هنا، ساحبة رأس الخيط من بكرة ملتفة على ماضٍ، تركته، ولم يتركها، متحاشية النظر إلى طلقاء الحب خارج منظومة حياتها المعطلة.

تعيش وحدة مقذعة، وحيرة، تحاصرها بأبعاد مشتتة. أصبحت تتجنب التلفزيون، فديو كليب الأغاني، تبتعد عن السير أمام البارات والمطاعم التي يرتادها العُشاق. تكتب "ما أسخفني، في، عقدي الثالث ، بهشاشتي، وخنوعي"، مكثرة من الفارزة، وكأن حياتها تلثغ بكلمات مبهمة، تجمع بين بغداد، الديوانية، وأمستردام؛ لتنبجس في المجهول الذي تجهل قدومه.

تعتمرها وحشة، كلّما نزلت من الدرج الكهربائي في المول، وتعانق اثنان بحميمية، غير آبهين بالتعثر أو السقوط، وكأنهما يحلّقان في فضاء، يحظر دخول أمثالها. طالما كان يُعلّق عليهم "محمد" "حيوانات! ما عدهم بيوت ينامون بيها"؟! ترفع حاجبيها بسخرية، ولا تجيبه، تقول في نفسها: "إلّي ما يلوح العنب يگول حامض".

هم يعيشون اللحظة، لا يُبرمجون قُبلة، أو لمسة حبّ، يفترض أن توقد فتيل لهفتها عفويتهم، أما نحن؛ فنتسوّل على عتبة العش الزوجي مودّة ورحمة، لا غير.

تحاول جهدها أن تستوعب تفاصيله الداخلية وأطباعه، متقبلة شكله الخارجي غير المفضل لديها، تشعر بأنها ملزمة أن تكون جادّة وقادرة على تكريب نخلة حياتها المسقاة بهتون الدمع.

لم تكن قد ركّزت في صورة "محمد" عندما كانت في العراق، ولم تنتبه لآثار بثور حب شباب، يخفيها بلحية خفيفة. كانت قد اقتنعت بأن هيئته العامة مقبولة جداً، ومناسبة لها.

كانت تقول لأخواتها: "كل شي أقبل في الشريك إلا البثور، فلا

أتحفلها". ها هي تتقبلها، وتُروّض قلبها على طاعة القدر. تُدخله في جمناستك الحياة محاولة إرجاع العضلة المشلولة لوظيفتها، عليها أن تواصل. لا تستطيع حمل حقائبها لرحيل آخر، وهروب جديد. وإلى أين هذه المرّة؟ تتساءل دائماً: "إلى أين؟ الحرب من ورائي، والضياع في المنفى أمامي، وأنا الواقفة على صخرة ناشز وسط محيط فجّ".

بذلت طبيبة العائلة "دكتورة راما" السورية الأصل قصارى جهدها لإخراجها من نوبة الاكتئاب، استدعت "محمداً"؛ لتواجهه بالخطر الحقيقي الذي ينتظرهما كعائلة، إن لم يتغير. لكنه رفض بإصرار وحنق فاض من صوته. اتهمها أنها لا تحمد الله على عائلتهما المرفهة والجميلة، وأن هناك من ينامون في العراء فكابدين أهوال الحرب والنزاعات.

كان يشعر بأنه طبيعي بأعضاء سليمة، وهي من تقلل من قيمته، بسبب شبقها فوق العادي، ورغبتها الحقيرة بجعله علكة في أفواه الجميع.

كانت "مينا" تؤكد من أنه ليس من رواد بيوت الأضوية الحمراء De wallen (الفاترينات الزجاجية التي تستعرض فيها المومسات الفجازات من الدولة أجسادهن للزبائن). فهو مواظب على صلواته الخمس، وصوم رمضان، لكنه من المؤكد يعاني من مشكلة نفسية. وزاد شك الطبيبة يقيناً عندما أخبرتها "مينا" أنها اكتشفت مجلات "بلاي بوي" التي جلبها من السوبر ماركت الذي يديره، وقد دفنها في برميل قديم عند المخزن الخلفي للمنزل مع أفلام "بورنو". وعندما واجهته، أنكر وتعوذ من افترائها، واستخف بسؤالها المبطن بتهمة مهينة.

مرّت سنوات كثيرة، والماء يتسرب من تحت بساطهما المخملي الظاهر حتى تركة عفناً، تبوخ منه رائحة آسنة. كثيراً ما تطيل مينا الوقوف أمام مرآتها ومنضدة التزيين، تتحسس ملامحها، والمنحدر الحاد بين قمة نهدها وخصرها النحيل. الأماكن التي لم ينضب عن كنوزها في جسدها، ثرى أستضفر شفتاها؟! أم تيبسان؟! إلام ستؤول محاوفها؟ وكيف ستمنع المعوّقات، وتتجاوزها؛ كي توارى فشلها؟

تقول: "ارتعبت يوماً من فكرة أني سأكبر، تتأكسد خلايا وجهي تحت وطأة الغضون والتجاعيد، وسيصبح الوقوف أمام المرآة فاضحاً، يفقدني التوازن، ويجعل الأرضية ممّوجة تحت قدمي، اهتز عرش أنوثتي، وأنا أفكر كيف سأبحث عما أرمم به شقوق القلب والعمر!

كنت أشعر بخرقة عندما يكون "محمد" في البيت، وهو غائب، أتزكه؛

لأتحفم بدوش بارد لمدة طويلة، فترتعش أوردتي، أبكي بصمت. تنساب جداول الماء مع الدمع على جسدي، وتنتفض السمكة المحتضرة على جرف القلب، تعودتُ أن أضيء شمعة، أمضي وقتاً طويلاً في الحمام، أنسى نفسي، وأنا أرقبها حتى تنطفئ.

يستبطئني، فيدق الباب: "وين صرتي "مينا"؟ ما عندي طول بال، أبقى ويه الولد.. متى انتهيت "آدم" يريدك". أقول لعلّ الفضول أكله ماذا أفعل في الحمام طوال هذا الوقت؟ يعرف جيداً أني لا أمارس العادة السرّية، قد أنتشي يوماً بفكرة مداعبة في خيالي، لكن؛ لم أتماه يوماً في وهم، أعرف جيداً أنه لن يخرجني من هوّة، شحفت في لفيفها أنوثتي".

تمنّت لو تذرّع - فقط - بالطفل، ومثّل دور الفشكّك بها، لو تخيّل استمناءها من دونه، أو دردشتها مع أحد آخر خفية عنه. تقول في نفسها: "ماذا لو أخرجني بغنف، وفتش مكالماتي، ملابسي الداخلية، حقّق مع مرآتي وخزانتي. لعلّه تمنى أن يقتحم خلوتي في الحمام، وتحجّج بالباطل؛ ليظهر أحقيته بي".

تلتفّ في البرنس، وتخرج، لتجده - أحياناً - يهمّ بالخروج من البيت، ويستعجل تحضيرها الغداء. تستشيط غيظاً في قرارتها، وتبتسم ابتسامة ميتة. تحضّر المائدة، وتجلس محدقة فيه من فوق صحن الطعام أمامها، تسند يدها اليمنى إلى خدها، وهو يحادثها متجنباً النظر في وجهها. تقول له: "لماذا هزجت الدنيا، وأنا في الحمام؟ هل تظن بي سوءاً"؟ يجيبها ضاحكاً كمسخ بارد: "على ماذا؟ معاذ الله، سأشك بأختي، ولا أشك بك. أنتِ ألماسة عفة، لكنك تعرفين جيداً أني لا أجيد تدبير أمور الطفل".

يخرج، ثم يعود بعد ساعات؛ ليبحث أول شيء عن لوح التاب؛ ليفتح مواقعه التي يخفيها عنها، وهو يولي لها - دوماً - ظهر الجهاز. أو يشرع لاحقاً في دفع الفواتير جالساً في ركنه الأثير من الصالون، طالباً منها إحضار الشاي والبسكويت.

في زيارتها الأخيرة لطبيبتها، أخبرتها "مينا" أن لا فائدة تُرجى من متابعة الجلسات، وستتوقف. فلن تستطيع الطبيبة فعل شيء لرجل، ينكر مرضه بإدمان العادة السرّية، ويحتقر رغبتها بممارسة حقّها الشرعي معه محاولاً إفهامها أن وطأها مرة كل شهر أو شهرين حالة صحية لهما وعليهما بالعفة! مضيفاً: "كافي جشع، يكفي طلعتك من جحيم العراق، وأتيتْ بك إلى جنان أوربا، وهبتك فرصة الخلاص من كوارث العراق".

ماذا تترجى منه ؟! وهو يتحاشى النظر إليها، وينهرها، لو تفتجت، أو لبست فستاناً خليعاً في البيت. ترك يوماً رسالة على مغسلة الحمام: "أرجوك، لا تنسي حمالات الصدر وغياراتك الداخلية بعد الآن، تعلمي حشمة شوية"!

تبلع ريقها بمضض، مستهجنة أفعاله، قائلة: "ماذا لو علّقتُ سرواله على رتاج النافذة؟ ماذا لو أقتحم عليه حمامه، وأخرج لساني ساخرة منه، ثم أصفق الباب؟ وماذا لو أحلّل دمه؛ لأكتشف انتماءه للسحالي الباردة الدم؟ هل تراه سيبعثني للعراق؟ بأي وجه سيدلي بشهادة حقيقته المشوهة؟ ازدواجيته في الحياة؟ يكفي أني استنفدتُ كل حيلي لتعديل مسار حياتنا، أحاول تبديد حقدي عليه الذي بدأ صدؤه يأكل في روحي".

يبقى صامتاً طوال مدة جلوسها معه، يجلس على الطرف الآخر من الأريكة، تغير مكانها؛ لتجلس بقربه، تضع راحة يده على كتفها قائلة: "مثل قليلاً دور الزوج، مو إحنا متزوجين"؟ امسح على شعري، احضني"..

يرد :"رجعني على منوال العشاكل"؟

- ليش تزوجتني لعاد؟
- كل شي مو بعينج مينا، لو تتصرّف مثل المراهقين لو موزينين، لو جنس لو إني مو خوش، اهتمي بالبيت وبابنج احسن.

تصك أسنانها، يتحشرج صوتها في ممرات الغصة.

وتقول بعدها: يا الله أدنى حقوق لأي امرأة ما عندي.

تتركه، تعرج إلى غرفتها، وتعلم جيداً أنه يدير القنوات الفضائية بعدها. يفتح مواقع التواصل الاجتماعي بمسميات مختلفة، اكتشفتها، وهي تبحث في google history. تسمع صوت الدوش قبيل الفجر، تقول لعلّه يستعد للصلاة، فهو مواظب، هههه. تستدرك نومها بعد لفّ الغطاء بين فخذيها، وحك ركبتيها ببعض، وهي تتصبب عرقاً.

"محمد" رَقْم صعب في خيبات "مينا"، لكنها - للأمانة - ليست الضحية الوحيدة في وطن، يُصدِّر مكلومين وجرحى قلوب إلى دول العالم، عبر حقب مختلفة في تاريخه. كان "محمد" يبكي في انزوائه، ما بعد كل لذة حسّية يصلها في مخيلته، ولا تُحرّك وجدانه. يُقارع شبح العادة المقيتة الذي يلازمه في خلوته، مستسلماً لخنجره بسهولة مخجلة، منغمساً في بركة المداعبة السرّيّة لصور افتراضية ووهمية. ذلك الشبح رافقه طويلاً مُذ أدمن العلاقة مع أنثى سراب، يلوح لها في صحراء رفحاء؛ حيث لم تقع عينه على وجه امرأة لأربع سنوات متوالية. يتذكر قساوة أيامه في مخيم اللاجئين على الحدود السعودية، الذي أُنشئ في أبريل ١٩٩١ على بعد ١٢ كم من الحدود العراقية، لاستقبال ٢١ ألف نازح من جنوب العراق، بعد سحق انتفاضتهم ضد الحكومة؛ إذ رُحّل إليه من مخيم الأرطاوية بعدما نُقل منه مع الأسرى والجنود العسكريين المعارضين لنظام صدام في البصرة. نقلوهم على ظهر شاحنات عسكرية سعودية، في ظروف صحراوية قاسية؛ ليُدمج مخيمهم مع مخيم رفحاء.

كان يُهرع كل يوم عصر إلى الجدار الذي يعلّق عليه أحد المترجمين لائحة بأسماء المرحّلين إلى موطن اللجوء الآخر. العيون مشبوحة ومتلهفة لقائمة الأسماء التي تصدر بين مدة وأخرى من مفوضية الأمم المتحدة، والدم يصعد إلى الصدغين عندما تُعلن أسماء متشابهة. فهناك عشرات ممن اسمهم "محمد". وهناك مَن يحمل نفس اللقب أيضاً. فكان عليه أن يدقّق في الاسم الثلاثي كل مرة. في سنة ١٩٩٥ ظهر اسمه في قائمة اللاجئين الذين قررت هولندا ضيافتهم فيها.

كلّما شحذ "محمد" ذاكرته، تراءى له صديقه الذي تورّم جسده، وبات مقعداً على كرسي متحرك، بسبب شربه الكولونيا تحت تأثير الإحباط، وأشد حالات اليأس. يهرب "محمد" من صوت الجلبة الخفية التي يحسها في أركان ماضٍ، يطارده.

رجُل مثله كابد النزاعات، ورافق العواصف الترابية، وهي تدور مع

سواوير الرمل؛ لتحرق باطن العين. عبأ المياه بالقناني، وواظب على توزيعها على من حوله، أشقاه الانتظار، كما أشقت نبتة الصبار عزلة الصحراء الموحشة.

قرر "محمد" بوصوله هولندا أن يقشر جلده الميت، ويعيد تأهيل أدمة جسده وروحه. اشتغل، ونجح. قرر أن يتزوج، ويبني أسرة. لكن العلّة كمنت خلف الصورة هذه، في رواسب الحرب والتهجير القسري، في كوابيسه التي تعلو فيها الهراوات على قبب النهود والشعر الحرير. في حوش أهله الذي لم يبارح مخيلته منذ آخر إجازة، وذعهم فيها قبل التحاقه بالجيش.

في خبايا نفسه حقائق من الصعب على رجل مثله أن يقرّها، ولو أمام مرآته، وليس امرأته وزوجته.

ما كان عليه غير أن يجزها إلى قاع حياته، ولا يطفو على سطح حياتها. تاركاً لها فرصة مسكه من رقبة الماضي أمام الطبيبة وغيرها في هولندا. هو ليس مريضاً، هو طبيعي جداً، زوجته هي من تحاول أن تكون هولندية، لكنها نسيت أنها ليست بعينين زرقاوين، وليست فارعة الطول مثلهن. متفاخرة بعائلتها المتعلّمة، وكأننا كنا حزاس مدارسهم! هي من تحتاج إلى تقويم. هذه الحالة كان يحاول إقناع نفسه بها طوال الوقت، ويرفض الخوض في غيرها.

تكترث "مينا" كثيراً لنظرات جارتها الهولندية "ساندرا" الحاضنة لأربع كلاب صغار، وهي تتحاشى اقترابهم منها خوفاً من ردة فعلها؛ لأنها كجميع الأوربيين تعرف أن المسلمين يتنجسون من حيواناتهم. وقد يبدون فظاظة في التعامل. كانت - فعلاً - تخاف الحيوانات، لكنها تراقب كلاب جارتها من بعيد، وهي تلاعبهم حولها بكُرة مطاطية مخصصة للكلاب. تتمشى معهم مساء بعد الرجوع من عملها في محطة البنزين، وفي الصباح، تتعاكس "مينا" معها، وتتقاطع على الرصيف المحاذي للشارع العام. "آدم" في العربة يلوّح لكلابها مبتهجاً، وهو في طريقه للحضانة.

كثيراً ما تأفلتهم "مينا" بحيرة، ووردت إلى خاطرها استفهامات إن كانت الهولندية تسد بهم فراغاً بشرياً ناتجاً عن انفصال، أو هروب؟ أم هي حاجة للألفة مع الحيوانات؟ وتعلم أن امرأة بهشاشتها وتشتتها، من الصعب عليها أن تستجمع الأفكار؛ لتميز ألواناً مختلفة ومتداخلة من المحيط. تحاول - في الوقت نفسه - التعرف عليها، وتغيير انطباعها عن المرأة العربية. فكانت تلوح لها من على ظهر دراجتها، تبادلها الـ"هالو" والابتسامة، وهي ترى الجهة اليمنى من شعرها جديلة ذهبية طويلة، والأخرى حلقتها زفّم صفر كالعسكر! تتخيلها هكذا في بغداد، وهي تقود دراجة على الشارع الرئيس للكرادة داخل، "كان شبعوها تصنيف". قادتهما مصادفات كثيرة لتبادل أطراف الحديث في الشارع، أو في السوبر ماركت الذي تتردد عليه "ساندرا" كثيراً؛ لتبتاع سكائر، كرزات، وعلب بيرة.

الكل في أمستردام يستقلّ دراجة، أو ترام للتنقل البسيط عبر الجسور الصغيرة، وفي الشوارع القريبة من محلّ السكن. تركّن "مينا" دراجتها التي ميزتها بفلصق فسفوري، عليه اسمها في مرآب الدراجات المحاذي لشارع "فان فاوسترات" المكتظ بالناس والمحال؛ حيث هناك تبدأ دوام عملها في السوبر ماركت من الظهيرة إلى الثامنة مساءً، بعد أن ينتهي "محمد" من دوامه الصباحي؛ كي تتجنب رؤيته، وتتفادى المواقف الصدامية، بالإضافة إلى الاستغناء عن تأجير عامل آخر في المحل في الأوقات الإضافية.

تبيع في المحل بطاقات اليانصيب، ساندويتشات جاهزة، مجلات وجرائد مختلفة، تفرضها الشركة الرئيسة المجهزة للسوبر ماركت.. إلخ. أمستردام مدينة متعددة الأوجه، تتعامل مع مختلف الجنسيات والسواح. تستمتع "مينا" بوقت عملها الذي تشعر بأنه يعطيها شيئاً من الاستقلالية والقوة، وإن كان تحت وصاية الزوج.

تعودت "مينا" أن ترتب الرفوف والفاترينات قبل كل عيد أو مناسبة في البلد بلوازمها الخاصة، التي يقبل على شرائها الجمهور كأعياد رأس السنة الميلادية، الهالوين، أو عيد الفصح، الفالنتاين.. إلخ.

في شهر فبراير، تسلّموا من المجهز دببة وميداليات، ملصقات، كروت عيد الحب التي يهتم بشرائها المراهقون والبالغون على السواء. تراهم يتوافدون فُرادى وجماعات لاقتناء الأجمل. عيونهم فتلألئة، تغمرها الإثارة واللهفة. فالنتاين يجدد العشاق فيه دورتهم الدموية بتمارين اهتمام، وقُبل ساخنة، تذيب صقيعاً، قد يتكون في وقت انشغالهم بأعباء الحياة.

اعتملتها الغيرة من إحداهن، فاختارت "نستلة m m" وميدالية مفاتيح، يتدلى منها قلبان مجسمان.

رجعت إلى المنزل مساء، وهي عازمة على محاولة جديدة مع زوجها وأبي ولدها "آدم"، ستدعس على ما يسمى كبرياء "ماكو كبرياء بين رجال ومرته" حسب ما كان يردد والدها أمام بناته. دلفت المنزل، فوجدت ابنها قد أدركته الغفوة على الأريكة، بملابسه الصباحية، و"محمد" مستلقٍ بفانيلة البيت، وقد أغلق لحظة وصولها وسماعه صرير الباب جهاز التاب. زفت شفتيها، ثم تعوذت من إبليس، وفردت أساريرها.

- مساء الخير، "حمودي".
- هلو "مينا"، يا هلا.
- عندي مفاجأة.
- خير، إن شاء الله.
- كل عام وإنت بخير، اليوم عيد الحب.

أعطته الميدالية، فشكرها ممتعضاً، وهو جالس على المقعد الدوار، دافعاً رأسه إلى الخلف، وكان يصز على أسنانه قائلاً:

- هالسوالف مو من ثوبنا، تعرفين، إحنا مو هولنديين.
- ولم لا؟ ما ضير أن نحزك حياتنا، ونتخلّص من الرتابة؟

يكح بصورة متقطعة، ثم يكمل:

- هالنوبة عيد حب! بطرانة من يومج، وما تبطلين سوالف محذرج منها. السوبر ماركت أثر على سلوكج. تأسي بزوجات النبي وفاطمة الزهراء وسلوكهنّ مع أزواجهنّ.

تتأمله، وهي تقلّص حدقة عينيها:

- إي بطرانة آني! حقك عليه زوجي العزيز. لكن؛ ما أدراك بخصوصيات زوجات النبي والزهراء؟!

كانت "مينا" لسنوات طويلة تضع حلقات باللون الفسفوري على تواريخ أعياد الميلاد، وعيد زواجهما، الذي أنذرها بلهجة غضب في المرة الأخيرة على الاحتفال به. متحججاً أنه من عائلة متدينة ومحافظة، لا تعنيها توافه الغرب.

يعيش وسطهم، يتبع قوانينهم برحابة صدر، مستفيداً من امتيازات المواطنة الهولندية، وتراه - بعدها - يتبجّح بخيمة الموروث التي تربّى في كنفها. "محمد" يتجنّب أي تلميح، أو مشاعر، تُقرّب بينهما كزوجين، ينامان بغطاءين منفصلين، وبمنطقة فحزمة، تقسم سريرهما الواحد.

لم يكن أوار الصراعات قد اشتد - بعد - في العراق، لكن صلوات التغيير كانت تتجه نحو قبلة الدمار المعنوي والمادي في البلد. تتصل "حلا" بـ"مينا" من تلفون، استعارته من جيران أهلها، يستعمله مترجمو الأمريكان، يتصلون مجاناً إلى أي مكان في العالم. "مينا" يقتلها القلق تارة، والفضول أخرى، كلّما فضفضت "حلا" عن ما يدور حولهم في بغداد:

- ما دريتي "مينا"؟ "منتصر" ابن "أم ظافر" اشترى بيتاً كبيراً في الجادرية بعد أن اضطر أصحابه إلى بيعه بسعر بخس؛ كي يطلقوا سراح ابنهم المرتهنة حياته عند عصابة تخطف الأطفال. أموره تغيّرت، وتزوج فتاة في مرحلة الثانوية، أبوها تاجر أثاث مستعمل وأنتيكات، يقولون والله أعلم استفاد من نهب المتحف بعد دخول الأمريكان. أكيد ما كانت تنفعه "ندى".. شيسوي بيها ههه، حتى هيه تنجن من سيرته وسيرة والدته الخياطة، تعرفيها اتدور مقامات.
- هههه "منتصر" هزم الجميع. أخبارك مشوقة ومحزنة، همنا يبكي، ويضحك، حال البلد انقلب، والناس هواية شفتهم جوي لجوء لهولندا، لكن معاندين هولندا، يقولون وقفنا الإقامة، بلدكم أمان الآن، ليش جايين؟! إنتو ديروا بالكم على نفسكم، الله يستر، بس.

تعودت "مينا" على روتين الوحدة، التواصل مع الأهل بعد نشرات الأخبار التي تتخللها فرقعات إعلانية وتورية للحقائق. تتصل "هديل" هي الأخرى معاتبة "مينا" على قلة التواصل معها، وانقطاعها، وهي تشكو من تفاقم سوء معاملة زوجها بعد ولادتها ابنتهم الرابعة، قائلة:

- وقف "علاء" يبكي مولولاً هو وعفته التي تسكن في الشارقة. كانا يتلقيان عبر المحمول مكالمات التعازي والتصبير قرب قسم الطوارئ، وقبل خروجي من ردهة الولادة.

ثم تستطرد: "أين أذهب بهن بحيلتي القليلة؟ لو كنتُ قد أكملت دراستي الجامعية، لوجدتُ - على الأقل - وظيفة، تسندني، يعني رجال "نسونجي"، ومو راضي بخلفة البنات، الله رازقه على عينهم بالفرية، أكو ناس تحفى على فرصة شغل، ومنصب مثل إلي عنده".

تحاول "مينا" تهدئتها عبر الهاتف، فقد تحشرج صوت أختها؛ ليتحول إلى أنين. قطعت الاتصال، وكتبت لها رسالة نصية: "أعلم أنّ مشرط الصبر حزّ عنقك، يا أختي، وعليك أن تحتملي لأجل بناتك، ما عسانا أن نفعل، ونحنُ تخيرنا هذا الواقع، وتوهمناهُ خلاصاً من بوتقة الأحلام المنتظرة. كلنا اليوم فيتنس بعيداً. فخزمة عائلتنا تبعثرت، وباتت إعادة ربطها استحالة، ككل بلد، يَجزأ، ثم تنبثق من جزئه فروع، تتبرأ من منشئها. وكأن طبخة المتربصين بنا لا تنضج إلا بتفتيت بقايانا على نيرانهم الهادئة، وقلوبنا المجمرة. انتهينا، يا أختي، لا نواح يُطفئ صراخنا المثقد، وما عاد الضرب على أرقام الهاتف يؤدب الأرحام، أو يوصل ما قطعه الوقت".

ترسل - بعدها - طرد هدايا باللون الوردي، إلى بنات

أختها في الإمارات، وفي داخلها، يمور شعور بالندم، ناب عن قصورها وجبنها عندما كانت في بغداد، بعدم تمزيق غلالة الخديعة حول عين "هديل"، وفضح زوجها.

تنتقل رفيقتها "نادية" إلى روتردام، ولم يسوءها رحيلها، ولاسيما بعد خفوت علاقتهما في الآونة الأخيرة، وتنافر قطبيهما.

تخرج "مينا" عصر السبت، وهي تدفع عربة "آدم"، تشتري له رقائق البطاطا وعصيراً، ثم تركب الترام إلى السنتر. تأخذ الصدفة بيدها أكثر من مرة لملاقاة "ساندرا"، وهذه المرة من دون كلابها، تجلس إلى طاولة خارج كوفي شوب (الكوفي شوب هو للشرب وتعاطي المخدرات والحشيش، والكافيه هو مقهى عادي). لم تركز "مينا" في اختلاف الاسمين، برغم أن "نادية" كانت نبهتها في أكثر من مناسبة.

تقف متعفدة، تتصنع عقد رباط حذائها الرياضي على الرصيف، ولا يفصلها عن جارتها سوى أشبار قليلة. يراودها شعور غامض بلزوم التقرب منها، تهم في تعديل وجهة العربة للرجوع، وهي تقطع شرود "ساندرا" التي تدخن في غليونة جذابة اللون. تسألها:

- هالو، هل تنتظرين أحداً؟
- مجموعة أصحاب تعوّدنا having fun في أمسيات السبت.
- مم، ليلة سعيدة.. داخ.
- داخ.

تتلفت "مينا" حولها، وعلى وجهها ابتسامة مصطنعة، حدقة عين متقلّصة واستغراب. تتركها، وترجع؛ لتجد "محمداً" يحتضن جهاز التاب. تقول له: "متى تتركه؟ الليلة عطلة"! يقلّب نظره بامتعاض، ثم ينظر مجدداً للشاشة التي لا ترى غير قفاها، ويتمتم: "ما تملّين من النق؟ ديري بالك عالولد، بس تفتزين بيه".

تتعفد كركبة البيت لمضايقته، وتفتح بعدها جهاز التلفاز. كان وقت فقرة الأبراج قد انتهى؛ لتشاهد

بالمصادفة تقريراً في عالم الحيوان عن الثعالب. ذكر الثعلب لا يقترن بغير أنثى واحدة طوال حياته، وإن ماتت يعزف عن الزواج بغيرها حتى آخر رمق له. تنظر إلى "محمد"، وتقول في سرها: "زوجة وحدة، إنت مو عارف تحتويها، سلاماً على الثعالب. لكن هذا التقرير لازم يشوفه "علاء"، ويصنف نفسه بخانة أوطأ من الحيوانات والحشرات".

باتت في كل صباح تصحو فزعة، تشعر بمغص وألم في بطنها. ترى مخلوقات غريبة في منامها تطاردها، وهي تحمل أقراطها المتشابكة في إناء مثلوم من كل جهاته. سلاسل متكومة مع صل أفعى محلزن في قعره، تتسرب عبر نافذتها أشباح الأحلام المجدبة والينابيع الموؤدة في خليج المستحيلات.

"مينا" في أمس الحاجة اليوم لأن تتحرر منها، لأن تحلّل وجودها في هذا المكان الذي لا تنتمي إليه. خلّفتها الذكرى حليفة معركة ممضة في ساحات النفس، أرجعتها إلى شارع، لا يُفضي إلى عودة. صفدت أفقها، ربطته، ثم دفعت بوجهتها إلى قفر الغصة. هل ستتملّص يوماً من عناق الأشباح، وترجع أدراج حزنها إلى رصيف هدنة، تصف فيه حبات المسبحة المبعثرة حولها؟

"مينا" هي امرأة، خلّفتها الذكرى شريدة وطن، ترجم بالغيب قيامة عودتها إلى حضن النخيل. تزمّ شفتيها حسرة، كلّما خفقت طفولتها بين طيات الصور.

تتسارع الأحداث والمآسي في العراق، بشكل مخيف. أخوها يذهب إلى الحلاق؛ فيجده قد باع المحل، وهاجر بسبب حملة ذبح الحلاقين، زوج عفتها فُصل من وظيفته في محافظة القادسية بعد أن رُفعت عليه قضية اجتثاث.

ذات مساء، وصلها خبر أن والدها في طوارئ مستشفى الراهبات، وأخوها في نوبة هستيريا عصبية، بعد أن خطفوا عمه الدكتور "طه"، وأخذوا فديته من والدهما، ثم قتلوه، ورموه في الشارع المحاذي لبيتهم! كيف؟ ومتى؟ ضعفت، جلست مذهولة على الأرض، وازرقّت شفتاها، تعتصر وجهها بكفيها، تضرب رأسها بالباب؛ لتستوعب هل أن ما يحدث كابوس من كوابيسها وخيالاتها؟!

في خضم هذه الخطوب، يدخل "محمد":

- ماذا حصل؟

تنتفض كسمكة على تخت تقشيرها، بأنفها المحمز، وعينيها المتورمتين، تخبره أهوال ما حصل لأهلها والعراق، محاولة الارتماء في أحضانه، طامعة بتصبيرة حنان، أو طبطبة مواساة براحة يده على كتفها. أدار لها ظهره قائلاً:

- الله يرحمه "مينا"، كل شيء خطر بالعراق هسه، ثاني شي ليش يخبروك، وإنت بالغربة؟ شنو بايدنا عليهم؟ ديري بالك على "آدم" والبيت أفضل. وين جهاز الريموت كونترول؟ لازم أغيّر القناة. أكو مباراة بين برشلونة وريال مدريد.

تتراجع كالعادة، ترش الماء حول مقبرة الصمت، ثم تعرج إلى غرفتها. تصفع الباب، وتأخذ حفاماً بارداً، تُطفئ به خفيات الغيظ والقهر، قبل أن تُغمض على سلسلة كوابيس في لياليها الليلاء.

الوطن والذات المعذبة صنوان نكبة تتأزم في حياتها، تنتهي نوبة عملها. ويتسلم العامل المناوب "أو محمد" المحل، فتخرج مكبوتة الغيظ؛ لتبلغ صعداء الضياع. تركب الترام إلى منطقة مزدحمة. تنزل، والجميع على عجلة، تصطدم بأكتاف البعض لدى عبور الشوارع، ولا شيء من ردة فعلها سوى بسمة وإيماءة اعتذار. تأخذها رغبتها بالهروب إلى شارع ضيق، لا تؤمه سيارات، بل للسابلة فقط. تسيرها خطواتها نحو هذا الدهليز المكتظ بألوان وأشكال الناس. تذكرت أنها لم تتذوق شيئاً منذ الصباح، جذبها مطعم تايلندي كبير، يحتل ركناً بأكمله في الشارع الذي تصطف المطاعم على جهتيه. دلفت إلى المطعم، وأمسكت قائمة الطعام. لم تفهم شيئاً من أصنافه، لكنها أشارت للنادل على صور ثمار البحر مع أرز أبيض. لم تكن نهمة في الحياة، بقدر ما كانت تواقة لازدراد لقمة الخزية التي تنسيها تكوينها، أصلها، رغبتها بأن تكون امرأة طبيعية، ووشائج الألفة الممزقة في أزمة وحدتها!

جذبها حال خروجها من المطعم صخب في الباحة القريبة من المحال التجارية، استفسرت عما يفعلون؟ أخبروها أنه مهرجان "ترانس" المخصص للمخنثين! رجال يتحولون إلى نساء، بفعل هرمونات، يستعرضون أنوثة مصطنعة حتى لا تكاد تميزهم. لم تعد تفغر فاها، كما كانت سابقاً عندما تظهر ردود فعل سخيفة، برفع الحاجب، أو هز الرأس.. فهذه مدينة اللا منطق واللا معقول.

تلك أمستردام مدينة الألف وجه، مدينة تنزع جلباب الهدوء الصباحي؛ لتفتح أزرار قميصها في المساء على مصراعي الجنس، والحشيشة، اللهو، والمرح.

أدركت أن لا مناص من حياتها هذه، ولم تراودها فكرة انفصال، تقصم ظهر أهلها، وتزعزع كيان ابنها. الواقع يفرض نفسه شاءت أم أبت، واقع يلوذ فيه "محمد" إلى العالم اليوتوبي والبوهيمي، وتحاول هي بعبداً الانصهار والذوبان في كأس الحياة الأوربية الناضحة بالشغف والإثارة. وإذا بها في دوخة يومية، تقلب آلية حركتها وذهنها حتى وصلت مع قلة التركيز إلى أن تطوي بنطلون "آدم"، وتضعه في الثلاجة بدل الخزانة! تملأ له قدح قهوة بدل شراب الشوكولاتة الدافئ، وتوصله للمدرسة متأخراً، أو مبكراً جداً. لم تعد تفرق في حالتها أكانت لا مبالاة أم ترهلاً في الإرادة وضبط النفس.

بينما الأرض تميد تحت قدمي "مينا"، وجدت في "ساندرا" رفقة، تُبعدها عن العراقيين، قصصهم وكل ما يعتصر قلبها من مآسيهم. بدأت تسرق الوقت؛ لتخرج معها، تقبت أنفها، وضعت خزامة، تدلت حلقة فضية من شفتها السفلى المكتنزة، وأصبح بين شحمة أذنها وهلال الصيوان أربعة ثقوب متساوية البعد، تخترقها أقراط صغيرة متراضة وملونة. عندما تخرج ترش سبريه فاقع اللون على خصلة من شعرها الداعم. "محمد" لا ينتبه لتفاصيلها، لهذا لم تنتظر اهتماماً أو اعتراضاً منه على التغيير الذي طرأ عليها. في مرحها غير الطبيعي وضحكها المستمر على أتفه الأمور، يتجنبها متخفياً تحت طاقية الحياة، متحوفاً الطريق الذي تمر فيه، حتى لا تطالبه بحقوقها الزوجية، وتدخل معه في حسابات العتب المفلسة.

يكفي أنها تطبخ له الأكل العراقي، تشتغل نوبة عمل صباحي أو مسائي في المحل، تغسل ملابسه، وتكويها، والولد يكبر في حلقتهما المفرغة. واندها و"سامر" بين أسنان الموت والحياة، يطمئنونها على نجاتهم؛ كلما انفجرت عبوة بفريهم، أو داهمت عصابة السوق التجاري المحاذي لمحل أبيها. ويكفي أنها تطمئنهم - بدورها - على سعادتها، ولا ينقصها شيء غير رؤيتهم!

يكفي لـ"مينا" أنها تقترب من منتصف الثلاثينيات، تتوزم في رأسها

فكرة الخسارة ورغبة تعويض مستحيلة عن ما تبدّد من سنوات شبابها.

"ساندرا" بدت حريصة على قضاء وقت فراغها مع "مينا" التي تلوذ إليها؛ لتهرب من فكرة انتحار، لا تصرح بها لأحد. تتوغل في رأسها، وتتعملق، كلما التف جسدها بلحاف شتوي غليظ، يتكثم اشتعال أنوثتها، كلما قصر النهار وخرجت الشمس خجولة من بين ترائب السماء. تقضي معها ساعات تدخين ونبيذ لا يصدر رائحة تشي بخدرها. تخبرها بأن هناك حفلة للجالية العربية، والمطرب كويتي في قاعة المسرح الوطني (كونسرت خياو) كانت قد رصدت إعلاناته على جدران الكوفي شوب.

- هل عندك مشكلة، إذا كان المطرب كويتياً، بسبب ما حصل بينكم؟

أفهمتها "مينا" أن شعوبنا لا ذنب لها، فلا بوادر صلح تفك حصر الصدور التي تعذبت. السياسة الرعناء لحاكمنا السابق برعمت غلّ تحول إلى شوكة كُره في قحف المخ. السياسة هي الصورة الخلفية لكل كوارثنا وخيباتنا لا الناس، فالأبرياء وحدهم في الحروب من يدفعون ثمن الحقد غالياً من محفظة الغمر. ضحكت كعادتها، وهي تنفث دخان السيكار. ثم استطردت بعد أن أخذت شهيقاً عميقاً:

- من المطرب الكويتي؟

- رويشد أو راشد..

- wie؟ من؟ عبد الله رويشد؟!

بدأت تضحك، ثم تبكي، وتجهش "لاا.. Waroom لماذا؟ هذا بالذات أكرهه؟ لا تذكريه "ساندرا"!

وصوت في داخلها المغلق على الماضي يصدح بالأغنية نفسها (علمني عليك، سكنتك نظرات عيون إذا قلتك أحبك).

اعترتها تشنجات روحية وجسدية، كفن يصاب بنوبة صرع، تستنفد طاقته، وتتركه واهناً مسلولاً.

في السبت اللاحق، رأيت "مينا" جالسة في السطر الأول من مدرج الحفلة. لم يكن لدي خبر أنها في هولندا، كنت موفداً إلى معرض للفن السريالي في مركز بومبيدو بباريس، استغلّيت فرصة إقامتي هناك؛ لأستقل القطار إلى أمستردام؛ حيث متحف فان غوخ. جذبتني في أثناء تجوالي في تلك المدينة المبهرجة، ضجة إعلامية حول حفلة رويشد الذي لم أزه بعد غزو الكويت.

أرسلت تنهدة عميقة عندما رأيتها، بدأ الماضي يضخ محلوله الموجع في خزان تخاذلي معها، ولا يأبه لفيض الخسران.

كانت تضحك، تقهقه، لم أعلم أمن نشوة اختمرت في دمها؟ أم من فداحة المشهد الذي لم يخطر على بال كلينا؟ احمز وجهها في مشهد دموي، جرجر أوردتنا إلى عناق أثيري، قُبلة أثيرية، كان لها وقعها في أيام خلت، وولّت.

ولسان الحال يصرخ أنها ضدمت، ولم تعد تشعر بشيء. صوت في داخلي: "اتركها، لا تحاول مجدداً صعقها بتيار شوق متردد، وضع حبة ندم وخجل تحت لسانك، فقد تخثر دمك في مجرى شهيقها، وأغلق معبر الزفير إلى حين فتح مستحيل. لم تعد تشعر بشيء مطلقاً، تعطلت ماكنة الحواس، وعطب إبزيم فمها في أول تماس مع سلك القُرب.. لم تعد تشعر.. اتركها.. لا تخزها بعد أن ماتت أدمة القلب"..

تغيرت "مينا" كثيراً، لم أتحسس غير فتيت امرأة ملوّنة وجذّابة. حورية خرجت من مدخنة أنفها روح قتيلة. كانت المرة الأولى التي أراها خارج الديوانية من دون غطاء رأس، وشعرها الأسود يتمرجح بين الكتف والصدغ. فستان مزركش بنقشات متداخلة، مفتوح الظهر، وتتدلى على ظهرها سلسلة مطعّمة بحجر أزرق. لفتتني بسرك الأقراط والشنوف اللامعة في أذنيها. اقتربت، فانتبهت إلى أن هناك ضوءاً انطفأ في عينيها، فلا بريق، ولا انعكاس في عيني. كنا على شفير قضة متآكلة مُصفرّة، قورت آفة الأرضة أجزاءها الثلاثة، وتركتها في يدي الرخوة؛ لأعيد ترميمها،

وأظلي تشوّهها بفرشاتي السريالية.

لم نلتق، ولا قادنا القدر؛ لنمضي معاً مجدداً، تلك الهوّة بيننا كانت قد انفتحت، وتوسعت حتى أصبح من المستحيل ردمها، أو حشوها بالمواساة. لكني قررت أن أكتبها، وأرسمها ضلَعاً مني، بقلمي السادي، وتحافل الألوان الصارخة على صفحة حياتي. أوثّق تاريخها ندماً، أو شوقاً منتهي الصلاحية. استبقيت نفسي في أمستردام؛ لألملم كل تفاصيلها، برغم الوقت المحدد لي للبقاء خارج العراق، ومناشدات العودة السريعة من أبي الذي يخشى الشوشرة حول مركزه الحساس اليوم في الحكومة.

ها إني أصوّرها في فصل أخير قبل رجوعي إلى بيتي وأولادي. كانت لقطة لحظوية مباغتة، التقطتُ فيها منظرها الجانبي في المقهى، بعيداً عن شلّتها، وهي تفرّك أنفها، وتحسر شعرها جانباً، تلُفّ ورق الميروانة في سيكار، وتُرخي حزام الماضي المشدود حول معدة الذكرى؛ لتنهي جمية القمر..

عادل

شكري وتقديري إلى المشرف اللّغوي حيدر الجابر